المقال الثالث عشر

الصحة والطب فى أمريكا قبل كولومبس

تشمل عبارة «قبل كولومبس» مرحلة طويلة، يرتد أكبر جزء منها إلى ما قبل التاريخ المكتوب، وتبتدئ عند وصول مهاجرين اتفق المؤرخون على أنهم نزحوا إلى القارة الأمريكية من آسيا حوالى القرن العشرين قبل الميلاد، وتنتهى فى يوم ١٢ أكتوبر ١٤٩٢، عندما أرسى (خريستوف كولومبس) مراكبه فى جزيرة صغيرة من جزائر الأنتيل وهو يظن أنه وصل الهند أو اليابان، ومن هنا كانت تسمية هذه الجزائر بالهند الغربية وسكانها الأصائل بالهنود، ثم تسميتها الحديثة (بأمرنديا Amerindia) وسكانها بالأمرنديين Amerindians وهما لفظتان منحوتتان من (أمريكا) و (الهند) لتميزهما من هند آسيا والهنديين الأسيويين. ولكننا يحق لنا أن نرجع بهذه الحقبة حتى تشمل أواسط القرن السادس عشر أو الثلث الأخير منه، أى بعد أن بدأت الحضارة الأوربية تستبدل بالعوائد المحلية، نتيجة لتعاقب رحلات الفاتحين والمغامرين على هذه البلاد.

غير أن تسمية هذه المرحلة الحضرية بحضارة «قبل كولومبس»، إذا دلت بمعناها الحرفى على الحقيقة السابقة لهذا الحدث التاريخى، فإنها تنطبق فى الحقيقية على الثقافة السابقة للتثاقف الأوربى - الأمريكى بأسرها، وبما أن موجات الاستعمار، والتثاقف الذى تبعها، لم يكن انتشارها متساويًا فى الزمان والمكان، ولكنها تتابعت من القرن الخامس عشر فى بعض المناطق إلى يومنا هذا فى مناطق أخرى، فإن مرحلة «قبل كولومبس» انتهت مبكرة فى أمريكا الوسطى وفى الشمال الشرقى، فى حين أنها ما تزال قائمة إلى الآن فى أقصى الشمال الغربى والجنوب.

وقد اعتاد الكتاب حصر نظرتهم إلى أمريكا «قبل كولومبس» على دولتى المكسيك وشعبيها (المايا) و (الأستيكاس) وبيرو وشعبها (الإينكاس)، وهما أهم مركزين حضاريين فيها، ولكنه غير خاف أن هذه البلاد آوت شعوبًا أخرى أعرق قدمًا، لم يتعرف عليها

إلا منذ عهد قريب، شعوبًا امتدت مستعمراتها من (ألسكا) فى الشمال، إلى (أرض النار) فى الجنوب، ومن المحيط الهادئ غربًا إلى المحيط الأطلسى شرقا، وقد كيفت هذه الشعوب أسس تراث هذه البلاد الفنى والعلمى.

تمتعت هذه الشعوب بمدينة متقدمة، وإن كانت ناقصة فى كثير من مظاهرها، فقد جهلت استعمال العجلة وحيوانات النقل، ولم يعرف «الإينكاس» الكتابة، ومع ذلك فقد شيدت هذه الشعوب عمارات شاهقة، ونقشت نقوشًا وأنتجت تحفا وحليًا تثير الإعجاب، وتقدمت فى الحساب، وكانت لها جداول زمنية مضبوطة وملاحظات فلكية هى غاية فى الدقة، ولكن هذه الحضارة، التى لم تقل بهاءً ولا غنى عن أية حضارة قديمة، امتازت - بحكم عزلتها التامة عن العالم القديم - بتقاليد فنية فريدة تدعو إلى الدهشة والاستغراب، كما اتسمت عقائدها الدينية بالشراسة وبالشغف بسفك الدماء وبتقديم القرابين البشرية، واختلفت مقوماتها عنها فى الحضارات المعروفة الأخرى، الأمر الذى هيأ للفاتحين الأسبان تبرير فتحهم، بدعوى أن «الأميرندى» كائن غير عاقل. وقد بنوا حكمهم على اعتياد «الهنود» أكل اللحوم الآدمية، وممارسة ألوان من الشذوذ الجنسى، واللوّاط المغاير، وتضحية القرابين البشرية، والتعذيب الذاتى، والانتحار الطقسى بأساليب بشعة، بل بتألية الانتحار، وتعاطى المواد المهلوسة، وغشيان المحارم، وإقامة التخنث مؤسسة اجتماعية رسمية.

ومن ثم ادعوا حق امتلاك أراضيهم، وممتلكاتهم ، بل وأشخاصهم، والقيام برسالة فرضتها عليهم العناية الإلهية، وهى تنوير هؤلاء الوثنيين وإهداؤهم الى الدين المسيحى. ولم يبالوا بالتناقض المنطق الذى وقعوا فيه إذ بشروا الجماعة قالوا إنهم من غير أصحاب العقول.

وقد باشروا هذه الحقوق المزيفة والادعاءات الكاذبة فى ظلم وشراسة وهتك ونهب، كانت نتيجتها إزعاج بعض الأفاضل من رهبان الدومنكان والفرنسسكان،فاتصل هؤلاء بالبابا (بول الثالث) - وكان البابا صاحب القول والفصل فى أوربا - فما كان منه إلا أن أقر بشرية الأمرنديين، وكان هذا فى سنة ١٥٣٨.

ولكن هذا القرار كان من نتيجة إبطال الحقوق التى كان البابا منحها فى سنة

١٤٩٣ إلى التاج الأسباني، فوجد البابا نفسه مضطرًا إلى إيقاف الأمرين السالفين لتناقضهما مع القوى الممنوحة إلى ملك أسبانيا، وبالتالى اتيح لمجلس الهند مصادرة الأمرين البابويين بحجة ضرورة تفحصهما، فمنع المجلس توزيعهما فى أمريكا. غير أن هذه القضية شغلت أسبانيا بأسرها فى القرن السادس عشر، - وهو عصر أكبر اللاهوتيين الأسبان - وكان بطل الدفاع عن الهنود (فرانسسكو دى فيتوريا Francisco de Vitoria) الذى أعاد فى كتاباته حقوق البابا والأمبراطور إلى أحجامها الصحيحة، ورفع مركز الأمرنديين الروحانى والقانون.

وقد تدرجت شعوب أمريكا من حيث نصيبها من التقدم بين بدائية البلاد التى كونت فيما بعد الولايات المتحدة، وغاية الرفاهية فى فن (المايا) فى المكسيك وجواتيمالا، ومع ذلك فإننا نجد فى طب مناطق هذه القارة بأسرها تشابهًا يدل على وحدة فكرية، ويسمح بشموله تحت تسمية واحدة. هذا إذا ارتضينا تسمية وسائل العلاج الجارى استخدامها حينذاك طبًّا. وإننا إنما نستعمل هنا هذه التسمية بأوسع معانيها، أى على اعتبار أن الطب هو مجموع الطرائق التى تستخدم للعلاج، بغض النظر عن علاقتها بما نعرفه بالطب اليوم، وعن مدى اختلافها عن السحر والشعوذة والعلاج الكهنوتى، وتلك أسس الطب البدائى، ذلك أن الطب لم يكن قد انفصل بعد عن الاعتبارات الدينية أو الروحانية أو الشيطانية التى كانت تكون عموده الفقرى، بل إن هذه الاعتبارات كانت تتدخل فى حياة الفرد فى كل مرحلة من مراحل حياته، وبصورة خاصة فى فترات الانتقال من مرحلة إلى أخرى من حياته، وكانت ترتبط بنواحى نشاطه كافة، بما فيها الفن، وهذه هى الناحية التى أمدتنا بأهم المراجع فى تقويم هذا الطب، حتى أن دراسة تاريخ الطب أصبحت جزءًا لا يتجزأ من علم الآثار.

نبذة تاريخية :

يبدو أن الإنسان ظهر فى شمال القارة الأمريكية قبل عهدنا هذا بحوالى ٢٠,٠٠٠ سنة ، قادمًا من آسيا عن طريق مضيق برنج، من سلالة قديمة من الأسكيمو، تنتسب إلى الصينيين، حسب رأى بعض العلماء، أو إلى السقيطيين Scythians حسب رأى البعض الآخر.

وفى الجنوب قدمت قبائل أخرى من جزر ميلانيزيا أو أندونيزيا، ومن المستبعد أن تكون قدمت من جزر بولينيزيا، أى فى اتجاه على عكس اتجاه رحلة (الكون تيكى) إذ إن هذه الجزر ظلت مهجورة حتى سنة ١٠٠٠ ق.م. ومهما يكن من أمر هذه الهجرات المتتالية، فإن ولايات أريزونا وتكساس كانت عامرة بالسكان زهاء الألفية الثالثة عشرة قبل الميلاد، وسكنت أرض النار حوالى الألفية السادسة، وكان أهم مركزين للتقدم الحضرى هما المكسيك وبيرو، وقد تشابه طب هاتين الحضارتين إلى حد كبير، مع اختلافهما العنصرى والزمنى.

أما فى المكسيك فإن إحدى أقدم الحضارات التى تعرف عليها المؤرخون هى حضارة الأولمك Olmec - أهل بلاد المطاط - المسماة أيضًا بحضارة (لافنتا) La Venta التى ترعرعت بين القرن العاشر ق.م. والقرن السادس الميلادى. وكان ذلك الشعب يشابه فى سماته الطبيعية وفى تكوينه الجسمى شعوب أفريقيا السوداء، وقد حل بمنخفضات شواطئ بغاز المكسيك، وكان يعبد نمر أمريكا (الجاجوار).

وكانت المرتفعات الواقعة شمال مدينة مكسيكو مركز شعوب تحكمها الكهنة حكما دينيًا، وصلت إلى قمة ازدهارها بين القرنين الرابع والتاسع الميلادين، وكان لها أثر بالغ فى حضارة المكسيك كافة، وبصورة خاصة فى تطوير فن الأستيكاس ذى الطابع الهندسى، وهذه الحضارة هى التى بنت معابد هرمية كانت تقام فيها طقوس الإله (تلالوك Tlaloc)، وإله المطر المخصب (كوتزلكواتل Quetzalcoatl) إله الحياة والخير والعلم المصور على شكل طائر له ريش الـ Quetzal، وإله (كويكسبتوتك Quixepetotec) (الإله المسلوخ) إله الخصب وإنجاب الذرية.

ثم هناك شعب الزابوتك Zapotek المؤمن بدين طبيعى امتاز بكثرة الآلهة (٩٠٠ ق.م. - ١٠٠٠م)، وشعب المكستك Mixtek، الذى برع فى فنون الحرب وصياغة الذهب، وشعب التلتك Toltec الذى أنشأ مدينة تولا (٨٩٠م)، والتوتوماك Totomac (القرن ٧ إلى ١٤م) الذى ترك فى شمال فيراكروز تماثيل خزفية عديدة للإلهة (سيهو اتكتو Cihuatecteo) إلهة السيدات اللاتى يمتن فى أثناء الولادة، واللاتى كن ينلن بذلك اعتبارا يماثل ما يناله المستشهدون فى الميدان.

وأهم حضارتين بين تلك الحضارات العدة كانتا كما أسلفنا الحضارتين اللتين امتاز بهما المايا والاستيكاس.

وقد وصل المايا من الشمال حوالى ٣٠٠٠ ق.م. وظلت حضارتهم فى ركود تام حتى حوالى سنة ١٠٠٠م حين أحرزت تقدمًا بينًا. وترجع عمائرهم الحجرية إلى حوالى ٣٥٠ ق.م. وتكونت إمبراطوريتهم بانضمام مدن كثيرة احتفظ كل منها باستقلالها فى أول عهدها ثم اتحدت. وقد تجلى تباين العناصر التى تكون منها المايا فى عدد اللهجات التى كانوا يتحدثون بها، وقد بلغ عددها خمس عشرة لهجة. أما نشأة مدينتهم فإنها ترجع إلى تأثيرات من الأولمك، ومن مدينة تيوتيوا كان. وقد قسم تاريخهم إلى ثلاث حقب: الحقبة قبل الكلاسية التى انتهت حوالى ٣٢٠م، والكلاسية التى امتدت من سنة ٣٢٠م إلى ٩٨٧م، وبعد الكلاسية أو التولتك Toltec التى عاصرت القرون الستة التالية. وقد اضمحل سلطانهم تحت تأثيرات جوية، وأوبئة متتالية، وحروب مستمرة، وانتهى عند الفتح الأسبانى، أى حوالى سنة ١٤٥٠م فى المكسيك وسنة ١٦٩٧ فى جواتيمالا.

وقد امتاز المايا بأرقى حضارة فى أمريكا، ولهذا التفوق لقبوا (إغريق العالم الجديد)، وقد بنوا بنايات ضخمة، واخترعوا استعمال الصفر فى الحساب - إلى جانب هنود آسيا - وبنوا حسابهم على أساس رقم ٢٠، وابتكروا خطًا هيروغليفيًا يستخدم الصور والرسوم للتعبير، وذلك الخط لم يتوصل العلماء إلى حل رموزه إلا سنة ١٩٦٥ عن طريق الحساب الاحصائى وباستعمال الأجهزة الألكترونية. ومع هذا الرقى شغفوا بتقديم القرابين البشرية، ومن الغريب أن هذه القرابين كانت إرادية فى كثير من الأحوال، لا عتقادهم أن الانتحار الطقسى، الذى كان يهيمن عليه الإله (اكستال Ixtal)، والذى كان فرضًا على المتصرين فى لعبة كرة البلوت الشعبية (آه!) يضمن لهم خير الحياة بعد الموت.

أما حضارة (الاستيكاس)، وهى أقصر الحضارات مدة وأقربها إلى عصرنا هذا - فقد بدأت فى القرن الثانى عشر الميلادى، عندما هاجر (التولتك) إلى شبه جزيرة يوكاتان، وهى لم تمتز بأية خصائص مميزة، بل اقتبست الكثير من المايا، ثم ابتلعت كل الحضارات الأخرى وتقمصتها بفضل قوة نظامها الكهنوتى والعسكرى. ولم تكن لهذا الشعب كتابة، وإن كان قد استعمل طائفة من الرموز المصورة لبعض الكتابات المقدسة.

وهذا الشعب هو الذى أنشأ مدينة مكسيكو (وأصل اسمها Tenochtitlan تينو شتتلان) فى أرض وجد فيها كهانة نسرًا (وهو رمز السماء والحياة العاملة الإيجابية) يلتهم ثعبانًا (وهو رمز الأرض والموت)، وما تزال صورة النسر الملتهم للثعبان رمزا و «رنكا» للمكسيك. وقد بلغ هذا القوم ذروة مجده بين ١٤٢٥ ، ١٥٠٠م، ثم استولى الأسبان على ملكه فى سنة ١٥١٩م.

كان هذا الشعب شعبًا عسكريًا، يؤمن بأن الحرب فرض دينى غايته جمع الأسرى الأحياء لتضحيتهم على الهياكل بغية ضمان بعثه، وذلك تمشيًا مع المبدأ القائل بأن الموت يستخلف الحياة فى تجدد دورى، وكان يعتقد أن قلوب الضحايا إنما هى زهور تقدم للآلهة، وأن دماء هذه الضحايا ما هى إلا ماء نفيس يغذى الخلق ويخصبه ويجدده، وكذلك آمن بآلهة عدة، منها إله ذو شقين ذكر وأنثى، وإله الذكورة، وأم كل الآلهة، المهيمنة على القمر والولادات والحصاد والملذات الجنسية، وإلهة الموت، وإله الشمس المحب للقرابين البشرية، وغيرها.

وفى بيرو تعددت الحضارات ولكنها وقعت كلها فى القرن الخامس عشر الميلادى تحت سيطرة الأينكاس Incas. وقد ازدهرت بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر الميلاديين، أى أنها عاصرت حضارة الأستيكاس فى المكسيك. وتميز دستورها بتقسيم القوم إلى طبقات تفصلها حواجز صلبة، وبإدارة حكومية حاسمة، وبنوع من الاشتراكية يضمن احتياجات الشعب شريطة أن يسلم الفرد للدولة كل منتجات عمله، ولقد صاغ الأينكاس الذهب (الذى سموه عرق الشمس)، والفضة (وكانت فى نظرهم دموع القمر)، على أنهم تفوقوا فى هذا الفن على المكسيكيين وغيرهم من سكان القارة. وشقوا الطرق، وبنوا القناطر على مسافات مجموعها ٥,٢٠٠ كيلو متر، ومع ذلك كله فإنهم لم يعرفوا الكتابة ولم يستخدموا الحيوانات للنقل، وانتهى ملكهم سنة ١٥٧٢ لدى مقتل آخر ملوكهم ، توباك أمارو Tupac Amparu على يد الأسبان.

* * *

والعجيب فى هذه الحضارات أنها تشابهت تشابهاً كبيرًا، وذلك مع الحقب الطويلة الفاصلة بينها، ومع جهل أكثرها للكتابة ومع قلة السفر البحرى وصعوبته وضآله الطرق

التى تصل بينها. ولذا فإنه يمكن وصف طبهم وصفًا يكاد يكون موحدًا، مع الإشارة إلى الفروق فى حينها.

وكان لها طب متميز عن غيره، لم يقل فاعلية عن طب أوربا المعاصرة، أو عن فاعلية خليط الخرافات والعادات الذى أدخله الفاتحون ومدعو التطبيب. وبما أن الشعوب والقبائل التى أمت القارة الأمريكية هجرت إليها من سيبيريا أو من نوح أخرى من آسيا، فقد جلبت معها مميزاتها المغولية التى نرى آثارها الطبية فيما يطلق عليه « الشمانية » و « الطوطمية » اللتان نشأتا فى آسيا، والشمانية مذهب من مذاهب شمال آسيا، يؤمن بعالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، الذى لايستجيب إلا للساحر الكاهن (الشمان)، أما الطوطمية فهى الإيمان بوجود صلة خفية بين جماعة وبين « طوطم » ما، ووثن يمثله. وقد يكون نباتًا أو حيوانًا، يتخذ رمزًا وعلمًا للأسرة والعشيرة.

المراجع :

المراجع التى يعتمد عليها فى دراسة طب الأمرنديين كثيرة، ولكنها جميعها مراجع جزئية لا ترضى فضولنا تمامًا عند البحث عن الأمراض التى كانت هذه الشعوب تعانيها أو عن وسائل العلاج التى كانت تتبعها، ذلك لأن المتن الطبية المحضة تكاد تكون معدومة، وإذن فعلينا أن نلجأ إلى الاستنتاجات المستنبطة من التحف الفنية، و من التآريخ العامة التى لا ترى قيمتها على قيمة كل التفسيرات البشرية، لأنها تتلون، ضرورة، باعتبارات تعود إلى شخصية المفسر، أو إلى نزعة الفنان أو المؤرخ، أو إلى الأفكار الشائعة عند ظهورها.

وإذا أضفنا إلى هذا أن أرض أمريكا ما تزال تكتنز آثارًا وكتابات لم يكشف عنها إلى اليوم، تحتم قبول هذه الاستنتاجات بكثير من التحفظ، غير أن حكمنا عليها يصح - إنصافًا لها - أن يبنى على المقارنة بالأحوال فى أوربا زمن الفتح الأسبانى، وهو الزمن الذى أحرق فيه (سر فنوس) حيًا لأنه وصف دورة الدم، والذى كان (فرنل Fernel) يميز فيه بين خواص زبل الحمام والدجاج والماعز وغيرها وكان (باراسلسوس Paracelsus)

يجد نفسه مرغمًا على إحراق كتب (جالينوس) فى الميادين العامة ليحرر الطب من الحبال التى كبله بها ذلك العالم الإغريق مدة ألف وستمائة سنة.

وأهم حيثيات هذا الحكم سنستمدها، كالمعتاد، من البقايا البشرية، ومن الصور، والآثار، ومن المخطوطات المعاصرة، وسنوفى كلا منها حقها عند مناقشة الأمراض المختلفة، غير أنه علينا أن نلاحظ أن البقايا الجثمانية قليلة فى المكسيك لاعتياد المكسيكيين إحراق الجثث أو دفنها بدون تحنيط، ولهذا السبب فإن معرفتنا للبقايا البشرية، وللأمراض والتشويهات الشائعة، لا تقارن بمعرفتنا لها فى عهد الفراعنة وفى العهود المقابلة لها أو السابقة لها فى مصر أو العراق.

ثم أن الموجود فى المتاحف والمجموعات الشخصية من التماثيل وأوانى الخزف كثير جدًا. وهى تبين بعض الأمراض والتشويهات الخارجية، ولكنها بطبيعتها صامته عن الأمراض الداخلية. كما أنه يدخل فيها وفى الرسوم - شأنها شأن كل إنتاج فنى - عامل خاص بالفنان وميوله، وبالرمزية الدينية أو الطقسية الشائعة، وإلى هذا تبق المخطوطات وما يزينها من الرسوم. وقيمة تلك لا تقدر بثمن وإن لم تكن واحدة منها «طبية» بالمعنى العلمى. غير أنها، مع ذلك، تحوى فى ثناياها معلومات طريفة عن طبائع الهنود وأمراضهم وعلاجها. أما تلك التى سبقت كتابتها تاريخ الفتح الأسبانى فإن عددها قليل جدًا بسبب تعصب الطغاة الأسبانيين، وإصرارهم على إبادة كل هذه المستندات لحكمهم عليها بأنها شيطانية ووثنية. ولذا فإن جل المخطوطات الموجودة اليوم لاحقه للفتح، وبذلك لا تلقى إلا ضوءاً غير مباشر على الأحداث التى ترويها.

وأحد المخطوطات التى سبقت الفتح : (كودكس درسدن Codex Dresdensis) الذى يرجع إلى ما قبل القرن الحادى عشر، موجود بفينا، ويحوى دراسات فلكية، والثانى (Codex Tro-Cortesianus)، الموجود فى المتحف الأمريكى بمدريد، يجمع طائفة من الطلائع الفلكية، والثالث كودكس بيريز (Codex Peresianus)، يحوى نبذًا عن طقوس مستوحاة من التقويمات اليومية (روزنامة).

ومؤلفو هذه المنسوخات، بعضهم من الهنود الذين اعتنقوا المسيحية، وارتضوا تقديم تاريخهم وأساطيرهم وعوائدهم القديمة على شكل يرضى حكامهم الطغاة ويتمشى ودينهم

الجديد، وقد ألفوا باللغة المحلية، وزودوا هذه المصنفات بتعليقات تفسيرية، أو بتراجم لاتينية أو أسبانية.

ولكن أغلبية هذه النصوص من تأليف الأوربيين الذين عاشوا فى هذه البلاد، سواء أكانوا موظفين إداريين أم عسكريين أم رهبانًا أم زواراً، ويغلب فى هذه النصوص الاهتمام بالملاحظات الطريفة أو العوائد الغريبة لتشويق القارئ أو لتبرير الفتح عن طريق السخرية من سكان أهل القارة الأصائل وإظهارهم بمظهر الوثنيين المتخلفين غير الجديرين بالاستقلال، أما الذين حاولوا إنصاف السكان الأصائل، أو تجاسروا على امتداحهم بعد أن دققوا البحث والاطلاع - إما عن محبة للبحث العلمى المحقق، وإما بواعز الإنسانية فإنهم كانوا قلة. ومن هؤلاء، فى المكسيك، الراهب (برناردينودى ساهاجون Bernardino de Sahagun) الذى أعيد نشر مؤلفاته أخيراً(٢٠٢). وفى بيرو الراهب (بارتولومى دى لاس كازاس Fray Bartolome De las Casas) الذى استحق، لحبه سكان هذه البلاد، أن يطلق عليه ملك أسبانيا لقب «حامى جميع الهنود» ولم ينشر مؤلفه إلا فى سنة ١٨٧٥(٢٠٣).

ومن أهم الكتب المتأخرة - وعددها ضخم - الثلاثة التى أشرنا إليها فيما سبق، والتى وضع أحدها (فيليب هوامان بومادى أيالا Felipe Huaman de Ayala) حفيد آخر أباطرة الأينكاس، لتمجيد ماضى شعبه. وقد نُسى المؤلف زمانًا غير قصير ثم كشف عنه بالمكتبة الملكية بكوبنهاجن فى سنة ١٩٠٨، ونشر سنة ١٩٣٩ (٢٠٤)، ووضع ثانيها (جارثيلازو إنكادى لافيجا Garcilaso Inca De la Vega) المولد، والمنتمى إلى سلالة ملكية هندية عن طريق والدته، ووضع ثالها الراهب اليسوعى (برنابى دى كوبو Barnabe de Cobo) الذى ألف تاريخًا للعالم الجديد يتصف بالواقعية، انتهى من كتابته فى سنة ١٦٥٣(٢٠٥).

وقد أخذ عدد الدراسات التى تناولت طب هذه المناطق يزداد يومًا بعد يوم. ويستطيع القارئ الاطلاع على كشوف مفصلة لهذه المراجع فى مقالات (جويرا (٢٠٦)، (٢٠٧)، (٢٠٨)، (٢٤٢)، وشاد فالدت Schadewaldt(٢٠٩) (وفرنسسكو فلورس Francisco Flores) الذى راجع تاريخ طب المكسيك حتى سنة ١٨٨٨(٢١٠)، (ومارتينز دوران

Martinez Duran) الذى تخصص فى تاريخ جواتيمالا(٢١١)، وشارل خورى(٢١٢)، وشتورفاند(٢١٣).

النشأة :

إننا إذ نتأمل فى طب هذا العهد، أنما نشاهد الطب بصفة عامة، كأنه توقف فى أول أطواره، وركد قرونًا ليسمح لنا بهذه النظرة الشائقة إلى أوائله.

نشأ الطب مع الإنسان؛ وقد كان له دائمًا وجهان : وجه إنسانى بحت، ناجم عن حب الوالدين لطفلهما المتألم، وشفقة عضو المجتمع على أخيه، واهتمام القائد بجنوده، ووجه آخر، ناجم عن فضول الإنسان وحيرته أمام أسرار الكون، وعن نزعته السببية التى طالما حفزته إلى البحث عن سبب لكل مسبب، وقد ظل هذا الفضول أقوى دافع للتقدم، فقد دفع إلى تخمين تفسيرات، اختلف جانبها من الصحة، فاحتفظ بها مبتكروها إذا تحققت تكهناتها - واستبدلوا بها غيرها إذا تناقضت نتائجها والواقع، فكان تعاقب التخمينات، وتحسينها التدريجى مهما تكن من البدائية، بداية تهجى الفلاسفة للعلم، وأول قواعد انطلقت منها المعرفة.

ويقابل هاتين النزعتين اتجاهان مختلفان فى العلاج :

أحدهما : عملى تجريبى يرمى إلى تخفيف العارض وتسكين الألم وتخفيفه، وهو ما نسميه بالعلاج العرضى.

والثانى : عقلى، يرمى إلى معرفة الأسباب الأولى لإزالتها. ولكن هذين الاتجاهين، بسبب نشأتهما فى ذهن واحد، تسايرا، واختلطا، وإن ظل كل منهما مستقلا عن الآخر إلى حد كبير أو صغير.

ولم يختلف الطب (الأمرندى) عن غيره فى العالم. غير أن نصيب كل من النزعتين، ودرجة تقدم كل منهما على الأخرى، وما حازت كل منهما من الركود أو التطور، اختلف عند كل شعب حسب نظرته إلى الحياة. وقد تفرعت النزعة السببية عند أوائل وعى الإنسان - لدورها - إلى نوعين من التفسيرات : هما التفسير السحرى والتفسير الإلهى، وقد غلب أولهما فى (بيرو)، وكان للثانى الغلبة فى المكسيك.

ويختلف السحر عن الدين اختلافًا تامًا، وإن كان الكثيرون من العلماء يرون أن الدين إنحدر عن السحر: فالسحر يؤمن بوجود قوى خفية مستقلة، غير مرتبطة بشخص أو بمادة، هى التى تنظم العالم، وإن هذه القوى يمكن أسرها ثم إحلالها فى جسد الغير، وبصفة عامة تسخيرها لأغراض الساحر عن طريق وسائل معينة. وللسحر منطق خاص به، يستقرئ المثل بالمثل من القياس السطحى، ويرى روابط بين المسميات والأسماء، وبين الأجسام المتشابهة، ويؤمن بخواص الأرقام والحروف، وبقوة الألفاظ والأصوات والأسماء، وبحتمية تتابع الأحداث إذا حدث أن تتابعت، وبإمكان إلحاق الأذى فى شخص إذا فعل هذا بنموذج يشابهه، وما إلى هذا من فروض مبنية على سببية وهمية.

أما الطب اللاهوتى أو الكهنوتى فإنه يختلف عن الطب السحرى فى الجوهر وإن كان يشابهه فى الشكل ولا يتميز عنه أحيانًا. ذلك أن السحر يدعى سلطانًا مباشرًا على القوى الفعالة التى يفرضها، ويأمرها بأداء المطلوب منها، ويسخرها لأغراضه، فى حين أن الطب اللاهوتى يتوسل إلى الإله طالبًا تدخله فى الأمر المطلوب(٢١٤).

وقد حاول الكثيرون تحديد الفيصل بين الدين والسحر. فقال البعض إن الدين هو العقيدة والسحر هو الطقس. إلا أن دينًا لا يرسم لمعتنقيه خط السير فى الحياة لايسمى دينًا، ولا يزيد عن كونه نظرية فلسفية. وقال البعض الآخر إن أساس الأديان هو قبول سلطان الآلهة ثم مساومتها بقبول التقيد بالفروض الخلقية وواجبات العبادة ثمنًا لما يطلب منهم من حماية ورعاية، وهذا أقرب إلى الحقيقة والعقل.

وبالتالى فإن وسائل الطب اللاهوتى اتخذت صورة مختلفة عن وسائل السحر، إذ إنها نبعت عن الفكرة بأن المرض إنما هو عقاب الآلهة للإنسان لخطيئة ارتكبها، وإذن فإنه يتحتم البحث عن هذه الخطيئة، أو فرض وجودها، ثم الالتجاء إلى الآلهة لرفع العقاب، أو التوسل إلى إله أقوى للتغلب على الإله المؤذى، وهذا بالصلوات والترتيلات وتقديم البخور والقرابين وبالطقوس التى كان يفرضها كل دين.

غير أن شخصية سادن السحر أو الكاهن كان لها أكبر أثر فى هذه الطرائق العلاجية. وهذا ما نراه إلى اليوم فى حلقات العلاج التى تخرج عن الطب العلمى،

كالعلاج الروحانى أو العلاج المغنطيسى إلخ.. ولخطورة الساحر بين قومه خضع اختياره لقواعد دقيقة، فلابد أن يكون من سلالة ساحر عظيم، أو أن تقترن أفلاك مواتية ساعة ميلاده، أو أن يحمل بعض الشارات على جسمه، أو أن يصاب بأحد الأمراض المقدسة المزعومة كالصراع أو الهستيريا، أو بتشويهات معينة، أو أن تكون أعجوبة قد وقعت له فى حياته إلخ.. ومايزال رهبان التبت يأخذون بمثل هذه الاعتبارات فى انتخاب أئمتهم، كما تراعيها الشعوب البدائية فى اختيار سحرتها.

وليس ثمة شك فى أن الساحر كان يرى تربية خاصة تقوى ملكاته، وتلهب حواسه وتزيد من عقيدته بأنه امتاز عن إخوته، هذا بالإضافة إلى وسائل الخداع التى كان يمارسها. ومن أمثلة هذا ما شاهدته «روث بندكت» بين هنود شمال غرب أمريكا، فقد روت أنها رأت ساحرًا يضع قطعة من القطن داخل فمه بين اللثة والخد، ويتمضمض أمام الملأ ليبرهن على خلو فيه، ثم يعض غشاء فمه الداخلى فى خلال حركاته الجائرة، ثم يمتص محل المرض أو الألم، وفى آخر تمثيليته يستخرج من فمه لفافة القطن وقد امتزجت باللعاب والدم وأصبحت أشبه بالدودة ويدعى أنه استقصى المرض باستئصال الدودة المسببة له(٢١٥).

ولنعد إلى الطب أو بعبارة أدق إلى التطبيب، عند هنود أمريكا.

لقد كان للطب التجريبى عندهم حقل محدود جدًا، وهو حقل الحالات المرضية ذوات الأسباب الخارجية الظاهرة كالجروح، مع قدر من الملاحظات عن تأثير بعض النباتات أو العوامل الطبيعية، وقد كانت الفرما كوبيا (الأمرندية)، التى ورثنا منها الكثير من العقاقير المفيدة، نتيجة ملاحظات تعاقبت على مدى قرون. وكان للمريض الخيار بين الطب السحرى - الذى كان يمارسه عند الأينكاس (أيشورى Ichuri) وبين الطب التجريبى الذى يمارسه (سانكويوك Sancoyoc)، شأنه شأن المريض المصرى فى عهد الفراعنة الذى كان له أن يختار بين الكاهن (وعابو)، والطبيب العلمانى (سونو)، أو شأن المريض البابلى الذى كان له أن يتوجه إلى (أسبيوتو) أو إلى (أسوتو)، أو المريض الصينى إلى الـ (وو) أو إلى الـ (يى)، كل حسب ميوله الخاصة أو حسب طبيعة مرضه. وكان الخيار نفسه للمكسيكى بين الـ (سيكوالس) أو الـ (أهمن) أو الـ (تيستل) وهو الطبيب

العلماني، إلا أن أكثر اللجوء كان للساحر أو الكاهن وليس للطبيب، لأن الأول والثاني كانا يتناولان الأمراض الداخلية التي كانت أسبابها خفية والتي - قياساً على الأمراض الناتجة عن تأثيرات خارجية - كانت تنسب إلى قوى لا مادية، غير مرئية، تنتمي إلى عالم ما وراء الطبيعة، أو إلى الأرواح، أو الجن، أو القوى الكونية.

وبما أن المرض فسر على أنه ناجم عن وجود عنصر غريب في الجسم مستقل عنه، فإن الأعراض كانت، في نظرهم مظاهر ثانوية لهذا الوجود الذي حل بجسم المريض أو امتلكه. وإذن فالتغلب على هذا الكيان الخفي الذي كون المرض لم يكن متاحاً إلا لمن عرف طرق الوصول إليه أو وسائل التأثير عليه، وقد قال «سوستل» في هذا الصدد:

تبدو أفكار المكسيكيين القدامى وعاداتهم الخاصة بالمرض، والطب، مركباً لا ينفصم من الديانة والسحر والعلم... ولكن، ليس ثمة من شك في أن الأول، ولا سيما الثاني من تلك العناصر الثلاثة، سيطرا على الثالث، فقد كان الـ (تيسيتل) رجلا كان أو امرأة، ساحراً قبل أن يكون طبيباً، غير أنه كان ساحرًا خيرًا، مقبولا، ومعتمدًا عليه في مجتمع كان يستنكر السحر «الأسود» وهو الذي يبتغي إلحاق الأذى بالعباد.

وقد زار (بارون لاهونتان)، في سنة ١٦٨٥، هنود منطقة كيبك - الذين لم تختلف عاداتهم عن عادات الهنود الأخر - ووصف الطبيب الساحر فقال «إنه نوع من الأطباء، أو بعبارة أصح من المشعوذين، وسبق أن شفى من مرض خطير، فوصل به الجنون إلى حد الظن بأنه أبدي، وأنه يملك قوى تمكنه من شفاء كل الأمراض بمخاطبة الأرواح، طيبة كانت أم شريرة. ومع أن الجميع يهزأ بهؤلاء المشعوذين في غيابهم، ويراهم على أنهم مجانين ضاع رشدهم نتيجة للمرض، مع ذلك يسمح لهم بالاقتراب من المرضى.. يحضر هذا الدجال فيتفحص المريض بدقة ويقول: «إن كانت الروح الشريرة هنا، فإني سوف أرغمها على الإقلاع بسرعة».. ثم ينعزل في خيمة صغيرة أقيمت لهذا الغرض حيث يغني ويرقص ويصيح كالذئب المتوحش. ثم يأتي إلى المريض ويمتص جزءاً من جسده، ويستخرج بعض العظام من فمه، مؤكداً للمريض أنه إنما أخرجها من جسمه، وأن مرضه بسيط، ويهيب به أن يرسل عبيده وخدمه لاصطياد الغزلان ليأكل من لحومها التي لا غنى عنها للشفاء. ثم يقدم للمريض - بالإضافة إلى هذا - عصير بعض

النباتات الملينة، غير أن المرضى درجوا على الاحتفاظ بها، مجاملة، دون تعاطيها». وهذه النبذة الأخيرة تعبر عن تشكك المرضى الأزلى فى الوصفات الطبية(٢١٦).

أما النزعة الكهنوتية التى سادت المجتمعات التى يسيطر عليها رجال الدين فنقتبس فى وصفها ما قاله (كونتنو Contenau) عن طب بابل وهو ينطبق تماماً على هذا النوع من العلاج فى كل مكان وكل زمان - قال : «إن الإله هو السيد الحقيق للإنسان ولكل ما حققه، ويلحق المرض بمن يشاء، وهو الذى يرجع إليه لإخماد حنقه، والشفعة فى يد وزرائه وخدمه.. ولذا فإنه من الطبيعى أن ينتمى الطبيب إلى فئة الكهنة، ولاسيما لأن هذه الفئة هى الوحيدة التى كانت على جانب من العلم» (٥٦).

ولذا فإنه إزاء هذه النظرة إلى المرض، يصبح البحث عن مقر المرض، أو عن نوعه من التفاهة بمكان، إذا قورن بضرورة التحقق من الشيطان المؤذى أو من الإله الضارب، ويتحول التشخيص إلى دراسة للأساطير، ترمى إلى الكشف عن القوى الكامنة وراء المرض، وإلى سبب حلولها بالمريض، وإلى الطرائق التى توصلت بها إلى غرضها.

وقد كان الأمر نديون قبل كولومبس ينظرون إلى المرض، بصفة عامة، على أنه عقاب. فكان أول ما يفعله الطبيب أن يسأل : «هل ارتكبت خطيئة؟ وهذا قبل أن يسأل : أين الألم؟»، أما إذا كان المريض لا يذكر الخطيئة التى ارتكبها فعندئذ يقع على عاتق الطبيب اكتشافها.

وكان المريض المصاب بداء إلهى يسمى فى لغة الاينكاس والإستيكاس - نتيجة لهذه النظرة المزرية - نتسبا لهويلزتلى Netspalhuiliztli، أى آكل الروث، وكان يرسم - مثلا فى (كودكس بورجيا) - مصاباً بآلام معوية وبولية وقىء دم وإسهال وعدم القدرة على مسك الفضلات(٢١٧) وهذه النظرة لم تشمل كل الأمراض بل استثنى البعض منها، ولا سيما العاهات، التى لم تعد عقاباً، بل كانت - على العكس - علامات تنبئ بمميزات قدسية أو بمواهب طبية.

وكانت أكثر الآلهة تلعب دوراً طبيًا، وكان فى مقدورها إلحاق المرض أو الإبراء منه على السواء، أما فى بيرو، فقد كانت هذه القوى مركزة فى اثنين من الآلهة : (باشامك Pachamac) و (فيراكوشا Viracocha) (المسافر الخير الذى يهب الشفاء) هذا بالإضافة

إلى جمهرة من الجن ومن قوى خفية مرتبطة ببعض المناطق أو ببعض الأشياء التى كانت موضع عبادة خاصة.

أما عند (المايا) فإن إله الطب الأول كان (اتزامنا Itzamna) (الإله الأحول) مخترع الكتابة، وابن (هوناب) (الإله الخالق)، وكانت زوجته تسيطر على نمو النباتات الشافية. وكان لدى المايا إله للموت والأوبئة، وإله هو «سيد الأطباء التسعة»، وإله للمياه.. إلخ.

ونسب الإستيكاس اختراع الطب إلى (كويتز الكواتل Quetzalcoatl) إله المعرفة والخير، وكانوا يقدسون (توسى) إلهة التكهن، ويضحون لها شابة تحمل اسمها. أما إله المطر، فإنه كان مسئولا عن مرض الاستسقاء، وعن الروماتزم والنقرس والشلل، وكل الأمراض المنسوبة إلى اضطرابات الجو أوالهواء، والقرح، وأمراض الجلد، والإدمان على شرب الخمر، وكانت لهم إلهة خاصة بالجرب وبأمراض العيون، وإله لأمراض الأطفال كان يعالج مرضاه فى معبده باعطائهم شراباً أسود اللون، وثمة إله آخر للعاهات والتوائم، وإله ذو قوى منومة وتكهنية للامراض المعدية، أما إله الموسيقى فكان مسئولا عن الأمراض الجنسية التى تحل بالرجال والنساء إذا اقترفوا محرمات جنسية.. وخلاصة القول أن الاستيكاس كانوا يختصون بكل نوع من أنواع المرض إلهاً قائماً بذاته.

أما عند الهنود الحمر، فكانت السلطة العليا فى يد (الشمس الكبرى) أو (الروح الكبرى) وكان المرض يعزى أيضاً إلى حيوانات أسطورية، إو إنسان مؤذ، أو ميت غير راض.

النظريات المرضية وفن التشخيص:

إن أول خطوة فى العلاج هى التشخيص، وكانت هذه الخطوة، كما رأينا تتخلص فى التحقق من القوى الخفية التى سببته، ومن الطريق التى اتخذتها لتحقيقه، وليس من نوع المرض أو مقره.

أما طريق نشأة المرض بسبب هذه القوى، فإنها كانت تتلخص فى واحدة من طرق ثلاث هى: ضياع الروح، أو دخول جسم أجنبى غير مرئى، أو نفوذ جوى.

والروح كان يطلق عليها لفظة «تونالى Tonalli» التى تعنى الروح الحيوية، أو قدر الإنسان وقضاءه، أو نجمه، وكانت القوى الشريرة تستطيع انتزاعها من الفرد، كما أن الساحر كان يستطيع إعادتها بوساطة آلة جوفاء من العظم المزخرف تسمى (آسرة الروح)، ويعتقد ياركو(٢١٨) أن تفسير المرض هذا كان أقدم التفسيرات التى أخذ بها الأمر نديون.

أما تسرب جسم دخيل، فكان أكثر التفسيرات شيوعاً، ومفاده امتلاك الجسم أو الكائن الدخيل لجسد المريض.

والتفسير الثالث، أى وجود ريح ضارة أو نفوذ جو مؤذ، كان يؤدى عند المكسيكيين معنى وجود تأثيرات مضرة غير مرئية تحوم حول الإنسان فى بعض الأيام، أو بعض الأجواء، ولا سيما فى أثناء الليل، وهذا التفسير يقارب بعض نظريات المصريين القدامى - الذين وصفوا فى الجزء السحرى من (بردية أدوين سميث[٢٢]) ريح الكاهن، أو ريح الميت أو ريح طاعون السنة، وهذا هو الذى أدى إلى تسمية مرض الملاريا من لفظتى Mal aria أى الهواء الردىء. وقد تكون العلاقة الملاحظة بين بعض الأمراض وبين انتشار البعوض أو ارتفاع درجة الرطوبة حول المستنقعات قد أدت إلى هذه النظرية.

أما التشخيص فى حد ذاته فإن الطريقة المفضلة للوصول إليه كانت استطلاع البوادر أو عمليات التكهن بوسائل شتى تتطلب معرفة لمبادئها لا يجيدها إلا الكهنة والسحرة. ومن تلك الوسائل أن سكان بيرو كانوا يتفقدون سلوك الحيوانات أو الرسوم التى ترسمها أوراق شجرة الكوكا المتساقطة على الأرض، وكان المكسيكيون يتفحصون الأشكال التى ترسمها بذور الذرة إذا نثرت على قطعة من النسيج الأبيض، أو إذا سقطت فى إناء من الماء، وكان سقوطها إلى أسفل الإناء يعد طالع سوء وعومها أو توزيعها توزيعاً متساوياً يعد فأل خير.

وبالمثل فإن هنود الشمال كانوا ينثرون مسحوقاً على سطح سائل، وأوصى (كودكس مالياباكى)(٢١٩) باستخدام القواقع كما يفعل «الغجر» اليوم. ولقد أوصت مراجع أخرى بالنظر المدقق إلى المرايا أو سطح الماء، أو باستطلاع العقد المعقودة على الحبال، فإذا

كانت العقد تنحل ذاتيًا كان الطالع حسناً. والمعروف عموماً أن علاقة العقد بتعقيد الأمور أو إيقافها مبدأ شائع فى السحر (والنفاثات فى العقد).

ثم إن كهنة «الأينكاس» كانوا يدعكون جسم المريض بخنزير رومى حى، ثم يقتلون الخنزير خنقاً فوق موضع الألم، ويستنتجون من شكل أحشائه مقر المرض وعلاجه، أو يتكهنون بمآل المرض بقياس ذراع المريض اليسرى بيد الطبيب اليمنى بعد تغويصها فى التبغ.

وقد استنبط (الإستيكاس) من مبدأ العلاقة المزعومة التى تربط الكون الأكبر Macrocosm (وهو الكون كافة)، بالكون الأصغر Microcosm (وهو جسم الإنسان) - استنبطوا جداول تحدد علاقات أجزاء الجسم بالأيام، كما أن (الناهوا) ربطوا بين الأرض والماء والمطر والهواء والحيوانات والأحشاء، وهذا يكاد يطابق ما كان يؤمن به الفلكيون والأطباء فى القرون الوسطى.

ولكن، بما أن التكهن يفترض اتصالا مباشراً بين المتكهن وبين عالم الأرواح الخفى، فقد كان من الطبيعى أن يبحث ذلك المتكهن عن وسائل تيسر هذا الاتصال، فاستعين بصفة خاصة بمركبات كانت تضع الساحر أو الكاهن فى حالة توتر وهياج وهلوسة. وقد افترضوا أنها، بهذا، تشبه ملكات الكاهن المزعومة وترهف حواسه وتزيد من حساسيتها، ولذا لجئوا إلى نباتات عدة كالبيوتل الذى يحوى مواد مهلوسة، وإلى التبغ والخمور التى كانوا يتعاطونها شرباً أو عن طريق الحقن الشرجية، هذا مع قرع الطبول والرقص والحركات الهستيرية التى كانت تخيل إلى مشاهديها أن روحاً حلت بشخص الطبيب أو المريض.

العلاج : وكان قوام العلاج خليطاً من الخبرة، ومن الاعتبارات الروحانية، أو شيئًا وسطاً بينها، وهذا كله بعيد كل البعد عن نطاق العقل، ولكنه مبنى بناء منطقيًا سليمًا على بعض المبادئ والمقدمات الزائفة التى يمكن حصرها على الوجه الآتى :

١ - عدم التمييز بين الفرد والمحيط، والتخيل أن الإنسان مجرد عضو من جسم كون شامل هو - كالجسم الآدمى - متضامن الأعضاء يستطاع التأثير عليه بحكم تضامنه

الكامل مع العالم، عند معرفة سر الروابط التى تربطه به.

٢ - إسناد روح خاصة وإرادة مستقلة لكل كائن، والتصور أنها دائمة التدخل فى الحياة اليومية.

٣ - تأليه الكائنات والأحداث، كالأنهر والأشجار والكهوف والجبال والبراكين والأعاصير، وإمكان تجسد هذه الكائنات والأعلام المؤلهة فى جسد الساحر أو الكاهن، وكان هذا التأليه للكائنات إما طلباً، وإما خوفاً من الكوارث التى تحل بها.

٤ - عدم إدراك فكرة الموت، وعدم التفريق بينه وبين الحياة، وتخيل الموت على أنه نوم عميق يتابع المتوفى من خلاله حياته السابقة، ويستيقظ منه أحياناً ليزور الأحياء فى صورة طيف لدى نومهم، وشبح أو رؤيا لدى يقظتهم، يزورهم ليطالبهم بحقوقه وأملاكه، ومن هنا العمليات الرامية إلى إرضاء الأرواح بتقديم الطعام والقرابين.

٥ - إسناد قوة كامنة إلى الألفاظ، تنطلق من فم المتكلم غير مبالية بشخصيته سالكة طريقاً ذاتية لا عودة منها، ثم الاعتقاد بأن الكلمة التى تصور المدلول إنما هى المدلول ذاته. وبأن اسم الشخص إنما هو الشخص نفسه، وبالتالى بأن معرفة اسم الشخص تسمح بامتلاكه وتكسب سلطاناً عليه. ومن هنا الإيمان بقوة التعاويذ شريطة أن يلتزم عند نطقها بشكلها وبطريقة ترتيلها دون انحراف، إذ إن أقل تعديل فيها يغير من طبيعتها ويفقدها فاعليتها، وقد يودى بحياة من أخطأ القاءها.

وقد كانت التعاويذ على أشكال مختلفة، منها الأمر بخروج المرض، أو نهى الروح عن إلحاق الأذى به، أو المجاهرة بعدم الإذعان إلى الروح الضارة، أو ذكر اسم المرض، أو التهديد، أو إدعاء الحصانة، أو طلب تدخل أرواح أقوى، أو انتحال ذات الإله، أو تأليه المريض أو أعضائه، أو سرد أساطير الآلهة لمحاولة إعادة أحداثها، أو ذكر اسم المرض، إيقاناً بأن معرفة الأسماء تمنح قوة التحكم فى مدلولها.

وكانت طرائق استعمال التعاويذ متباينة فمنها ما كان يستخدم بمصاحبة علاج. ومنها ما كان يتلى فى أثناء تحضير الدواء ليضفى على محتوياته صفات علاجية خاصة، ومنها ما كان يرتل على الشخص المشعوذ أو ينطق به على الأحجبة والطلاسم ليحمل قوة

التعويذة وينقلها من الساحر إلى المريض دون استخدام دواء ما. ومن الغريب أن الطبيب أو الساحر - عندما كان يرتل التعويذة - كان يتكلم بلسان الإله تارة، والساحر الأمر طورًا، والمريض أحيانًا، منتحلا كل تلك الشخصيات دوريًا.

٦ - الاعتقاد بأن حركة رمزية أو تمثيلية تحول - بفعل قوة الساحر - الشبه إلى حقيقة، والحركة على أنواع: فإما تستخدم وسيلة للتعويذة لتنقلها إلى المعوذ له، وإما أن تقوم بلون من التمثيل يتناول الأمر المطلوب لضمان حصوله فعلا، كأن يقلد الساحر حركة الماء أو ينفخ ليرمز عن الهواء.. إلخ، وإما أن تجرى على نماذج تمثل الأمر المطلوب، أو الروح المؤذية.

وقد وصلت هذه الحركات إلى ذروة التعقيد والفن فى الرقصات التوسلية التى شاعت بين الأمر نديين شيوعًا واسعًا، والتى كانت تقام باستخدام الأقنعة والملابس التنكرية والريش والألوان الزاهية والطبول وآلات القرع والموسيقى، والتى كانت فى أغلب الأحيان تحاكى حركات الحيوانات المؤلهة التى كانت تتوسل إليها. كرقصة الثعبان المشهورة.

٧ - الاعتقاد بإمكان نقل المرض من المريض إلى كائن آخر بتلامسهما أو بإجراء طقوس انتقال معينة بينهما ، شبيهة بفكرة كبش الفداء.

٨ - فرض استمرار التضامن بين الشخص وكل ما امتلكه أو لمسه، أو بين الشخص وصورته.

٩ - استنتاج « الهوية » من التشابه واستقراء المثل من القياس السطحى، والربط بين الشىء وبين شبيهه، وبين الشىء وبين اسمه، والاعتقاد بأن أى عمل أتى بنتيجة فى الماضى سوف يأتى حتمًا بمثلها فى المستقبل، أو أن استعمال حجر أحمر يفيد أمراض الدم، أو أن زهرة صفراء تفيد الصفراء، أو أن نباتًا يشبه عضوًا يشفى أمراض ذلك العضو. وفى هذا الصدد قال (ساهاجون) : « يوجد فى هذه البلاد حجارة تسمى حجر الدم، لونها أخضر منقط تشبه نقط الدم. وتلك الحجارة تستطيع إيقاف النزف، وقد جربتها لأنى أمتلك أحدها... وعند تفشى وباء سنة ١٥٧٦ سال دم الكثيرين من أنوفهم..

وكان النزف يتوقف بمجرد وضع تلك الحجارة فى أيدى المرضى، وكان يشفى المرض الذى مات من جرائه الكثيرون...».

وبالمثل كان الإستيكاس يعالجون أمراض اللثة بأن يضعوا عليها إحدى أسنان واحد من الموتى. وكانت بعض القبائل تعالج أمراض الأذن بأن يوضع عليها أذن حيوان (نانذو) وذلك لقوة حاسة السمع التى يتمتع بها ذلك الحيوان، كما كانوا يوصون بأن يأكل المريض لحم الرخم لعلاج أمراض العيون، وذلك لقوة بصر هذا الطير، أو بأن يتناول عصير نبات أبيض لإدرار اللبن...

* * *

وإلى القارئ بعض أمثلة من تلك الأنواع من العلاج التى كانت تجمع بين أكثر من مبدأ من المبادئ التى ذكرناها:

(أ) امتصاص المرض بالفم: أو بواسطة أنبوبة مجوفة، وتلك عملية دجل ماهرة، كان المعالج يدعى استخراج المرض الدخيل بوساطتها على شكل دودة أو حجر أو حيوان صغير، وكان يحضر الحجر أو الحيوان ويخفيه فى ثنايا ثيابه أو فى كيس خفى، وقد أسلفنا بذكر مثل لهذه العملية تستخدم فيه لفافة من القطن، وقد شاهد شيئًا كهذا - فى البرازيل حوالى سنة ١٥٥٠ - الفرنسى تيفى[٢٢٠]، وكثيرون غيره.

(ب) التعاويذ المصحوبة بالحركات: يقول سوستيل[٢٢١] فى وصف مثل من علاج الصداع: «يدلك التسيتل (أى الطبيب) رأس المريض تدليكًا شديدًا وهو يقول أنتم أيتها التوناللى الخمسة (أصابع الطبيب) المتطلعة نحوى ناحية واحدة، وأنتما أيتها الإلهتان (كواتو) و (كواكسوش) اللتان تهدمان الـ (ماسواللى)، سنجده على شاطئ الماء الإلهى، وسنطيح به فى الماء الإلهى». ثم ينفخ على رأس المريض ويصب الماء على رأسه وينادى الماء قائلا: «تعال ورد الحياة إلى هذا الـ (ماسواللى) خادم إلهنا». وفى حالة إحفاق هذا العلاج كان الطبيب يضع تبغًا مخلوطًا بعقار يسمى (شاللتلى) وينطق بهذه التعويذة: «أنا الكاهن سيد السحر، أين الذى يهدم هذا الرأس المسحور؟ أحضر أنت الذى ضربت تسع مرات وسحقت تسع مرات (أى التبغ المسحوق)، سنشفى هذا الرأس المسحور بالدواء الأحمر (شاللتلى)، إنى أنادى الريح الباردة لتشفى هذا الرأس المسحور.

يأيتها الريح، إنى أسألك: هل أحضرت الدواء لهذا الرأس المسحور؟». وكثيرًا ما كانت تلك الحركات تتسم بالعنف، وبضرب المرضى.

(جـ) الاعتراف الطقسى: وكانت هذه العادة شائعة عند الأينكاس والمايا والإستيكاس على السواء. ومن الطريف أن الكاهن كان مقيدًا بواجب السرية، كما أن هذا الاعتراف كان يجرى لا لشفاء المعترف وحسب، وإنما كذلك لأمراض الأولاد والأقارب والرؤساء، وكان يصاحب الاعتراف البصق فى الماء*، وكانت تقام حفلات للاعتراف الجماعية العلنية، ويعترف الشعب فى خلالها بخطاياه لإبراء الـ (سابا أينكا)، أى ملك الإينكاس. وكان يتبع الاعتراف والاستحمام مع تقديم القرابين والضحايا، ولم يكن الاعتراف بالخطايا راميًا إلى التوبة وطلب الغفران ولكنه كان أقرب إلى عملية تفريغ ذهنى يقصد منه التخلص من شعور الإثم ونقل الخطيئة.

(د) القرابين البشرية: لم تكن القرابين العلاجية الفردية من الوحشية بقدر ما كانت عليه القرابين الجماعية التى اعتاد تقديمها التولتك والإستيكاس، بل كان الإله المستشار - عن طريق الكاهن أو الساحر - يكتفى بطلب تضحية جزئية أو رمزية، مثل إجراء قطع فى الأذن، أو خز عضو أو جفن بشوك نباتى، أو اختراق اللسان بشوك الصبر، ثم وضع الدم المسكوب عند قدمى الإله أو صبه على الطريق أو على أرضية المعابد. وهذه الجروح كانت تصل من الخطورة إلى حد بتر الأصابع. وهناك رسوم وتماثيل من الخزف تمثل هذه العمليات، وقد نقشت أو رسمت على سبيل الاستبدال أى استبدال رسم العضو مبتورًا أو موخزا، ببتر أو خز العضو ذاته.

(هـ) استعمال المواد المقيئة أو المنفرة: لإبعاد الشيطان، كالفضلات والنباتات العفنة، وكذلك عملية التدخين، كما روى (تيودور دى برى): «يلقى المرضى على بطونهم، وتلقى بعض البذور على النار، فيتسرب الدخان إلى أفواههم وأنسوفهم ويسرى فى الجسم فيطرد المرض»(٢٢٢).

(و) الترينة: لاستئصال روح المرض من مقرها بالمخ (رسم ١٣ - ٣ و ١٣ - ٤).

---

* قارن بالعبارة الشعبية: «تف من بقك»!

(ز) وإذا تفشى المرض على شكل وباء أرسل الجنود المدججون بالسلاح فى المدن والطرق والشوارع، يصيحون ويقومون بحركات هجومية بأسلحتهم، لقتل عناصر المرض وطردها، وكانوا يتابعون هذه الحرب الوهمية حتى يبلغوا نهرًا أو جدولا، فيغتسلون فيه مما يكون قد لحقهم من تلك العناصر.

(ح) **التمائم:** وكان الاعتقاد فى خواص بعض الأشياء العلاجية راسخا عند شعوب أمريكا قاطبة. ومن تلك الأشياء: العقود المصنوعة من الأصابع الآدمية المبتورة، والصفن الآدمى والأسنان والأقنعة لتخويف العفاريت، وتماثيل الحيوانات الحارسة الطوطمية.

لم تكن تلك الطرائق عديمة الفائدة، ذلك أنها كانت تحدث فى المرضى تأثيرات نفسية قوية قد تشفيهم وقتا قصيرًا، هذا بالإضافة إلى أن الأطباء كانوا يقدمون إلى مرضاهم فى خلال هذه العمليات عقاقير وأدوية، سنرى فيما بعد أنها كانت فعالة فى كثير من الأحوال.

هذا، وقد كانت مزاولة السحر الطبى، مع ما فيه من الشعوذة والسحر، موضوعة تحت رقابة حكومية مشددة، تعاقب كل من الحق الأذى بمرضاه. وروى (ساهوجون) أن الأطباء الذين اتضح تكرار إخفاق علاجهم يقتلون بتصويب سهم إلى رقابهم.

أما فى بيرو - فكانوا يدفنون أحياءً، وكان الحكم عليهم عند الإستيكاس من اختصاص مجلس الحكماء، فلا تعجب إذن من فاعلية علاجهم أو من إعجاب الأسبانيين بالطب المحلى ورفضهم استدعاء أطباء من أوربا، ذلك لأن الأطباء المحليين كانوا أمهر منهم، فنحن نرى أن (كورتس) فى سنة ١٥٢٢ طلب إلى ملك أسبانيا تحريم هجرة الأطباء الأوربيين إلى المكسيك لأنهم قليلو الفائدة. وكان هذا التحريم استثناءً فريدًا لسياسة الإداريين والقساوسة الرامية إلى محو آثار حضارة البلاد الأصلية، بل لقد وصل الإعجاب بهم إلى إيفاد بعثات من أوربا لدراسة الطرائق العلاجية المحلية، وبصورة خاصة لمعرفة العقاقير التى كانت تأتى بتلك الفوائد.

والآن بعد أن راجعنا نظريات هؤلاء الأطباء وآراءهم وطرائقهم السحرية والكهنوتية، علينا أن نتفحص مدى معلوماتهم العلمية، وقيمة علاجاتهم التجريبية.

معرفة الجسم وأعضائه :

فى صدد طب هنود أمريكا نستحسن أن نعبر بـ (معرفة الجسم وأعضائه) على لفظة « التشريح »، وذلك لما فى هذه اللفظة الأخيرة من الإشارة إلى مزاولة عمليات تشريح منظمة ترمى إلى الكشف عن شكل الأعضاء وأوضاعها، فتلك عمليات لم يمارسها أولئك الهنود.

أما شكل الجسم الخارجى فإنه - بطبيعة الحال - كان معروفًا. غير أن الأمريندين لم يعرفوا عن الأحشاء الداخلية إلا ما رأوه عند تفحص الجرحى والضحايا البشرية، وعند إجراء عمليات التحنيط وتشريح الحيوانات، وهنا يجدر بنا أن نصف الدفن والتحنيط وصفًا مقتضبًا لإلقاء الضوء على هذه العادات وعلى المعلومات الطبية التى تنم عليها.

لقد حرص القدامى دائما وفى كل الأصقاع على حفظ أجساد الموتى ودفع الفناء عنها. لأسباب دينية قهرية، وقد اختلفت الوسائل المستخدمة لهذا الغرض باختلاف الشعوب والقبائل.

ففى بيرو - إذا كان المتوفى عضوًا من أعضاء القبيلة - كان يدفن بأكمله، وتدفن معه ممتلكاته العادية وبعض الأطعمة وذلك لثنيه عن العودة إلى عالم الأحياء. وفى مدينة كويتو اعتاد هنود قبيلة (كوارا) توصيل الفم إلى الخارج بوساطة أنبوبة جوفاء لتمكين الميت من التغذى عن طريقها.

وخص (المايا) بالإحراق للموتى من النبلاء، أما غيرهم، فكانت تملأ أفواههم بحبوب الذرة، ثم يدفنون فى وضع الجنين داخل الرحم، أى بثنى الركبتين تحت الذقن، أما الملك وحده فكان يحفظ جالسًا على عرش من الذهب فى قصر (كوزكو) ويعرض أمام عباده ورعاياه.

وفى الأرجنتين كان الموتى يدفنون داخل جرار كبيرة كاملى الأجسام.

على أن عملية التحنيط لم تصل قط إلى ما وصلت إليه من الكمال عند المصريين القدامى، وإنما أكتفى بتفريغ الأحشاء ثم بعرض الجثة للدخان، أو بتجفيفها بدون تحضير

ما، أو بعلاجها بالتانين، أو بأكسيد الزنك، أو بخلاصة النعناع أو بأصباغ وبأشباه قلويات مختلفة.

واختلف الإستيكاس عن هؤلاء فى إنهم كانوا يحرقون الجثث، ما عدا فى حالات الوفاة من جراء ولادة، أو نتيجة لمرض جلدى، أو استسقاء، أو صاعقة، أو الغرق، فتلك وفيات نسبت لعوامل جوية. وبالتالى، كانت تتمتع بطابع مقدس. وفيما عدا ذلك فإن رماد الموتى كان يوضع فى آنية خاصة يصحبه حجر كريم يمثل القلب. وقد حاكاهم فى ذلك شعب الـ (تاراسك) الذى كان - فوق ذلك - يدفن أقارب الميت المقربين أحياء بعد تخديرهم بالخمر.

أما إذا كانت الجثة جثة عدو أو ضحية قدمت قربانًا للآلهة، فقد تحتم الاحتفاظ بالرأس أو الجمجمة على سبيل التحفة. وكان الإينكاس يستخدمون هذه الجماجم كئوسًا للشرب. وقد بلغ عدد الجماجم التى وجدت فى مكسيكو عند الفتح الأسبانى ٩٢,٠٠٠ كما قال بعضهم و ١٣٩,٠٠٠ كما قال آخرون. وما تزال عادة حفظ الرءوس المنكمشة شائعة بين هنود الجيفارو Jivaro، وذلك بعد تحضيرها بطرق خاصة أساسها، قبل كل شىء ، إزالة عظام الجمجمة عن طريق فتحة فى الرقبة مع الحفاظ على سمات الوجه بما فيها الأنف والحواجب والجفون والشعر، وعلاج الأنسجة الرخوة بمواد تضمن حفظها، وتكرار غمس الرأس فى حمامات متوالية حتى يصل حجمه إلى حجم رأس المولود الجديد.

وعملية تفريغ الجسد كانت تجرى أيضًا على الأحياء فى ديانة (الإستيكاس) القاسية وكانت هذه العملية تعد فرضًا نحو إله الشمس وضرورية لإبقاء الجنس البشرى سليما. وقد تطورت هذه العقيدة حتى آمن المايا والتولتك والإستيكاس بأن الموت ينجب الحياة فى دورة أبدية لا مفر منها، وأن تضحية بعض الأحياء هى الوسيلة الوحيدة لضمان تجديد حياة الآخرين، وتحقيق أبدية الكون. لا غرابة إذن فى تقبل الضحايا لهذا القضاء بالرضا، وفى إيمانها بأن هذا العذاب يجعلها جزءًا من الإله.

ومن السخرية بمكان أن حروبًا (سميت حروب الأزهار ! !) كانت تنشب لمجرد الحصول على أسرى، فى أوقات وتواريخ تعينها التقويمات الدينية. ففى الشهر الثانى من

السنة المقسمة إلى ثمانية عشر شهرًا، كان الكهنة يرتدون جلود ضحاياهم البشرية لتكريم إله المسلوخين (كسيبي توتك Xipe totec) (شكل ١٣ - ١)، وفى الشهرين الثالث والخامس، كانت تضحى الأطفال (للإله تلالوك) بغية الاستسقاء، وفى الشهر الخامس يتحتم أن تكون الضحية فتاة تمثل إله الأذرة النامية، وفى الشهر العاشر - للاحتفال بحصاد الفواكه - كانت تذبح الأسرى جماعة فى إسلوب بشع، يتخلص فى إحراقهم نصف إحراق ثم فى انتزاع قلوبهم وهم ما يزالون على قيد الحياة. وفى الشهر الثامن عشر كان يضحى بعدد كبير من الأسرى والأهلين المربوطين على سلالم. أما قطع الرأس الطقسى فيستبق لحفلات نادرة كالتى تقام عند توديع فصل الخريف.

هذا بالإضافة إلى حفلات أخرى مماثلة فى مناسبات عدة، كتتويج ملك أو دفنه، أو لإبعاد الأوبئة، وقد بلغ عدد الضحايا، فى بعض هذه الحفلات، رقم ٢٠,٠٠٠ فى السنة، وقال البعض أنه بلغ فى منطقة مكسيكو وحدها ٧٢,٣٤٤، وذلك كله فى خلال أربعة أيام. وقد روى الأسبان أن رائحة الدم فى شوارع مكسيكو ، عند دخولهم هذه المدينة كانت لا تطاق.

ثم أن الضحية كان يطلح بها من قمة المعبد الهرمى، ثم يرقص سادن الطقس رقصة دينية مرتديًا جلد الضحية المسلوخة. ثم تسلق الضحايا فى قدر كبير، ليتغذى منها الكهنة بعد حجز القلوب للآلهة والأحشاء للثعابين المقدسة[٢٢٣]. وقد استمر أكل اللحوم البشرية الطقسى فى ديانة بعض قبائل البرازيل حتى القرن السادس عشر، وعند بعض الهنود الحمر حتى القرن الثامن عشر، ولئن كانت هذه التقاليد الشرسة منتشرة بين كل شعوب أمريكا فهى لم تبلغ مثل هذا العنف لدى غير الإستيكاس، ومع ذلك فإنها تتناقض كل التناقض وما هو معروف عن ترفه تلك الشعوب، ورفعة فلسفتهم. حقيقة أن عقائدهم تفسرها ولكننا لا نجد فيها مبررا.

يبقى علينا وصف عملية التعذيب بانتزاع القلب كما وضحت فى النصوص والرسوم التشريحية التى وصلت إلى أيدينا، للمعلومات التشريحية البدائية التى تم عليها كانت الضحية - رجلا كانت أو امرأة أو طفلا - تجرد من الثياب، وتخدر تخديرا خفيفا ببخ مسحوق الـ (ياوهتلى) على الوجه، وتلقى مثنية إلى الخلف على هيكل محدب الشكل (شكل ١٣ - ٢)، ثم يجىء الكاهن مرتديا ثوبا أسود، ومفكوك الشعر، ويشق الجزء

الأسفل من نصف الصدر الأيسر بوساطة سكين من الزجاج البركانى الأسود ويمد الفتح حتى يشمل أعلى البطن إلى أسفل الضلوع فينفتح الصدر كالرمانة الناضجة (حسب وصف بعض المؤرخين)، ويدخل يده فى عمق الجرح ويوجهها إلى أعلى ليخترق الحجاب الحاجز ويمسك بالقلب والشرايين فينتزعها بعنف من موضعها (شكل ١٣-٣). وتدل التصاوير على أن القلب كان ينتزع مع الغدة التوتية والشرايين الكبيرة التى تتفرع من الأورطا..

وبسبب المدلول الدينى للقلب، أدخلت صورته فى زينة التحف وفى الزخارف الرمزية، كرسم لنسر يأكل قلبا، أو رسم آخر للنمر الأمريكى (جاجوار) وهو يلتهم طنفا من القلوب، أو كعقد القلوب الذى يزدان به تمثال الإله (كواتليكوى) الضخم المودع فى متحف مكسيكو.

وما من شك فى أن هذه العادات الوحشية عرفت الكهنة بشكل القلب والقصبة الهوائية والأوعية الكبرى والرئتين. ومما يروى عن عوائد هذه الشعوب أن سيدة انتزعت فى أثناء معركة قلب عدو ورئتية، ونفخت فى قصبته لنفخ الرئتين، ثم رفعتها على رءوس الأعداء بشكل جائر لترعبهم.

إلا أن معرفتهم كادت تتوقف عند القلب. ولم يخصوا الكبد بأى اهتمام فى نظرياتهم الطبية. أما الفنانون فإنهم لم يهتموا إلا بالعظام. غير أن تصاويرهم بعيدة عن التمثيل التشريحى الواقعى كل البعد، ولا تزيد قيمتها عن رمزها للموت وللحياة التى تنجم منه. وهذا واضح من عدد التصاوير والنقوش التى يمثل نصفها إنسانًا حيا نصفها الآخر هيكلا عظميا وما يزال الصبيان المكسيكيون إلى اليوم يلعبون بالعظام ويرسمون الجماجم على اللعب والكعك فى أعيادهم ولا يعيرونها أى معنى من المعانى الحزينة.

والعادة الثانية التى أدت إلى معرفة شيء من التشريح هى عادة سلخ الآدميين التى عرفت الإستيكاس بشكل العضلات السطحية والأوعية. (شكل ١٣-١).

وإلى هذا فإنهم ميزوا بين الشرايين والأوردة، وكانت لها أسماء مختلفة، والغريب أن الأولى سميت (أيشيوتل أيوى Ichiyotl Ioui) أى أوعية الهواء أو الروح، وهذا يقابل اسمها باللغات الأفرنجية (artery) المشتقة من (air، هواء)، لاعتقاد القدامى أن الشرايين إنما

تحمل هواء. ثم إنهم قالوا إن الشرايين موزعة فى كل الجسم، وإنها غير ملونة، سميكة، توصل الدم، تنزف بغزارة، نابضة، ترتفع وتنخفض وتتفرع. أما الأوردة - وكان اسمها - «أوعية الدم» - فكانت تتميز بنحافة جدرانها. وكانت لديهم لفظة تدل على أوعية بيضاء فى نحافة الورق، وقد تكون أطلقت على الأوعية اللمفاوية، وقيل عن الأعصاب أنها بيضاء كالخيوط، أما وظائف أعضاء الحس فكانت مجهولة، ولم يعرف دور المخ وإن بدا أنهم جعلوا له شأنًا فى التفكير.

وظائف الأعضاء:

لم تتعد معرفة المكسيكيين، فى ميدان الدورة الدموية، أن الدم يجرى من القلب إلى الشرايين على شكل حركة ضاربة وإن له دورًا أساسيًا فى الحياة. وقد عرفوا النبض، كما أن هذه المعلومات لم تتعد الحدس بعلاقة ما بين الأمعاء والعهضم، دون الوصول إلى تفاصيل هذه العملية.

ولم يدرك المكسيكيون وظيفة الكلى الحقيقية وأسندوا إليها الاشتراك فى الوظائف الجنسية وأخضعوا عملية الانجاب لتفسيرات أسطورية لم تتعرض للغدد الجنسية بشكل واضح. أما فن الولادة فقد تقدم تقدمًا بالغًا.

علم الأمراض:

لقد أسلفنا القول وناقشنا نظرية المرض العامة التى أخذت بها هذه الشعوب وهى التى تعزو الأمراض إلى الخطيئة وتنسيها إلى العقاب والجن والأرواح، وقد قسموها، حسب موضعها الظاهر، من الرأس إلى القدمين كما فعل المصريون حسب (بردية أدوين سميث ٢٢) والأوربين حيت عهد مورجانى(٢٢٤)، أو حسب عوارضها: القرح الصداع، الإسهال، قىء الدم، صعوبة التنفس، الأورام، الاستسقاء، دون التعرض إلى الأحشاء أو الأعضاء المسببة للعارض أو إلى الأسباب الحقيقية.

وكان فحص المريض مبسطًا للغاية. ومع ذلك فإن خبرة المعالجين المتراكمة على مر القرون أملت عليهم ملاحظات مفيدة، ولا سيما فى معرفة مآل المرض أو كما سماه العرب، «تقدمة المعرفة». يقول (الكودكس باديانس Codex Badianus)(٢٢٥): «إن

الطبيب النابه يستطيع معرفة هل المريض سيبرأ أو أنه سيموت، وذلك بملاحظة الأنف والعينين : فإذا كانت عينا المريض محتقنتين بالدم، فإنه سيحيا يقيناً، أما إذا كانتا شاحبتين ومفرغتين من الدم فيصح الشك فى المآل. وكانت منبئات الموت هى : الأسوداد حول العينين، والبرودة، وانكماش أعلى الرأس، وذهاب لمعة العينين، ونحافة الأنف كالعصا، وتصلب الفك، وبرودة اللسان، وعدم استطاعة تحريك الأسنان، وتركم القلاح عليها. كما يدل على اقتراب الوفاة انسكاب دم قاتم، وإطباق الأسنان وتلون الوجه بلون رمادى، . . . وإذا دهك صدر المريض بخشب الصنوبر، أو إذا وخز بسنة ذئب ولم يستجب المريض لهما، فإن الوفاة لا مفر منها».

وكان يعبر عن هذا بالعبارة الآتية : «لقد تجاوز المريض احتمال الشفاء». ومن الطريف أن هذا الوصف الدقيق لملامح الموت يذكرنا بوصف (أبقرط) لها وبما نسميه اليوم السمات أو السحنة (الأبقراطية، غير أن أمثال هذها النبذة الجميلة نادرة.

وقد قدر (رويس(٢٢٦) عدد الأمراض التى عرفها (المايا) بسبعة وثلاثين وأربعمائة ولكل مرض اسم وعلاج. أما فى بيرو فقد قدر (هرناندر(٢٢٧) الأمراض الشائعة بمائتين، غير أن الأوصاف تنقصها الدقة، وذلك أمر يجعل التعرف عليها من الصعوبة بمكان.

ونسب ضيق التنفس، فى بيرو، إلى تسرب نفس الموتى فى أجسام الأحياء، أو إلى فساد الهواء، ووصفوا الزكام. وقال (جويرا(٢٠٧) إن (المايا) ميزوا بين السعال السطحى وسببه فى الحنجرة، وبين السعال العميق الناجم عن الشعب أو الرئتين، وإنهم وصفوا الربو، والنزلات الشعبية، والدرن الرئوى الذى سموه «مرض التجفف»، وأطلقوا على كل من تلك الأمراض اسماً خاصاً.

وقد يصح أن الهنود الذين اعتادوا سن حجر السيلكس فى جنوب غرب الولايات المتحدة أصيبوا بالسليكوز(٢١٨) أى تحجر الرئة الناتج عن استنشاق غبار السليكا.

وقد عرف (المايا) كيف يفرقون بين الإغماء والصرع، وسموا الدوالى الأوردة العقدية، وأطلقوا أسماء خاصة على الذبحة الصدرية وعلى أمراض القلب المفاجئة (شيبيل chibil وتزيميل tzemil). أما أمراض تصلب الشرايين فلم يدلل تفحص الجثث على انتشارها انتشاراً واسعاً، ولذا فإن هبوط القلب المصحوب بالاستسقاء، الذى نجد له أوصافاً

وتصاوير ورسومًا عدة، كان فى أكثر الأحوال ناتجًا عن المرض الطفيلى المسمى اليوم بمرض (شاجاس).

على أن الأمراض الأخرى لم تختلف عن أمراض البلاد المتخلفة أو عن أمراض البلاد الحارة، بما فيها الإسهال، والإصابة بالطفيليات، والدوسنتريا، والحالات الشبيهة بالكولرا، والقىء، والصفراء، أما قىء الدم فيبدو أنه كان شائعًا وربما كان عرضًا من أعراض الحمى الصفراء التى يجوز الأخذ بقدمها فى هذه البلاد.

إلا أنه ليس فى استطاعة المؤرخ تحديد نسبة تفشى الدرن. ومن المعروف من البقايا البشرية ومن تصاوير عدة، أن درن العظام انتشر بينهم قبل دخول الأوربيين، إلا أن دخول هذه العناصر الجديدة الحاملة لسلالات مكروبية غير معهودة نجم عنه ظهور المرض على شكل وبائى حاد، حصد آلافًا من الأهلين.

أما الصرع وقد سمى «المرض المطيح الشبيه بالموت» (شكل ١٣-٣)، فهم لم ينسبوا إليه معنى سيئًا كما فعل الإغريق واللاتين، بل كان له عندهم وضع خاص على أنه أحد الأمراض المقدسة وقيل إن سببه مسة إلهية. وإليك وصفة لعلاجه: «لهذا علاج لكل من يقع، ويهز ذراعيه بعنف ويبصق لعابًا، يجب سحق قرن غزال وإعطاء المسحوق للمريض ليشربه، وإلا فتؤكل خصيتًا ديك رومى (أو حبشى) مفرومة فى الماء، وإذا تكرر الداء، يفصد وريد الأذن ويقدم شرابًا للمصاب، أو يقتل كلب وتستخرج صفراؤه لشربها».

وقد يصح أن أهل بيرو عرفوا التتانوس، كما أنهم نقشوا شلل الوجه على إناء مودع بمتحف برلين، وفصدوا بين الحاجبين أو على الرأس للصداع، ووصف سكان جبال الأند الشاهقة - فى دقة بالغة - عوارض (داء الجبال) الذى ينتاب المسافرين على المرتفعات نتيجة لخفة الهواء.

وهم لم يسلموا من الاضطرابات النفسية التى نسبوها - بطبيعة الحال - إلى الأرواح وعالجوها بالعزلة التامة، وقد وصفوا أنواعًا من هذه الاضطرابات، كالملاخوليا والهلوسة والتخيلات، والهياج.

ومن عجائب حضارتهم أن المايا كانوا يحثون على الانتحار ويشجعونه لأسباب دينية،

لأنه - فى رأيهم - كان يضمن الجنة للمنتحرين، وكانت ترعى الانتحار إلهة (اكستاب Ixtab) التى صوروها معلقة على قبة السماء بحبل ملفوف حول رقبتها.

ويبدو أن المكسيكيين أدركوا دور الحالة النفسية فى تسبب العوارض الجسمية، فلقد روى (جوست Jost[٢٢٨]) أن الخطباء كانوا يستهلون خطبهم قائلين لمستمعيهم : «أنا لا أريد أن أدخل فى أنفسكم الملل، أو أسبب لكم الصداع أو آلام المعدة»، كما أن الإستيكاس عرفوا ما يصيب الأولاد من الانزعاج عند ابتعادهم عن الوالدين بعد الزواج فاعتادوا تقديم هذه النصيحة : «أنت يا من تحتم عليه ترك والدك ووالدتك، أحرص على ألا يتعلق قلبك بهما»، كما حرصوا على إبعاد الحوامل عن كل أسباب الانزعاج النفسى.

أما المرض الذى كان متفشيًا تفشيًا غير عادى فهو الاستسقاء، وقد أطلق عليه فى بيرو عبارة مؤداها «لقد جف النبع» وهى عبارة تشير إلى محاولة إيجاد تفسير للمرض، وكان يعالج أما بمدرات البول التى استخدموا منها عددًا كبيرًا، أو بوخز الأنسجة المتورمة أو تشريطها، ودرجوا على أن يضعوا المصابين به تحت رعاية (إله المطر). وبذلك يستحق من توفى من جرائة الجنة (تلا لو كان)، شأنه شأن من مات غريقًا أو مصعوقًا. وقد يكون سبب انتشار الاستسقاء هو مرض (شاجاس) وهبوط القلب الناتج عنه.

وقد وجدت آثار الروماتيزم المزمن فى نسبة من الجثث جد مرتفعة، تتراوح بين ١٣٪ و ٤٠٪. وقد خصصوا لآثاره فى الجسم تحفًا عدة تمثل التواء الرقبة، أو روماتيزم الكتف، أو النقرس. ولقد قال عنها (ساهاجون)[٢٠٢] : «لقد تصور الإستيكاس أن بعض الأمراض التى تبدو نتيجة للبرد تأتى من الجبال، أو أن هذه الجبال تستطيع شفاءها، ولذا كان المصابون ينذرون بإقامة الحفلات وتقديم القرابين إلى أقرب الجبال إليهم. وكان العلاج : الوخز بعظام الحيوانات، ثم بوضع نباتات أو لصق منها».

ومن الآثار البشرية التى تفيد دراستها عالم السلالات : سمك عظام الجماجم من النوع ذاته الذى ينجم عن أمراض تكسر الدم، كمرض (كولى Cooley) و (الأنيميا الكروية spherocytosis)، وفى هذا ما يشير إلى انتشار فصائل غير طبيعية من الهموجلوبين، وهى ظاهرة اتخذت دليلا على طريق انحدار السلالات البشرية وانتقالها من قارة إلى قارة.

ومن الأمراض الأخرى : البواسير، وقد نسبت إلى ملامسة زهرة بيضاء، والزهرى الذى يقال إنه وصل إلى أوربا من هذه البلاد، وقد ألفه الإستيكاس وسموه مرض الزهر أو مرض النبلاء والسيدات، والسيلان، ومرض الفيل، والأورام، وكانوا يميزون بين أنواع كثيرة منها، وقرح الوجه (ويرجح أن سببها نوع من اللشمانيا)، وسرطان الثدى، وسنشير إلى بعضها فى شىء من التفصيل فيما بعد.

وقد انتشر تضخم الغدة الدرقية وما يزال متفشيًا إلى اليوم فى كل هذه البلاد نتيجة لنقص اليود فى الملح على سفوح الجبال البعيدة عن المحيط. وقد عثر على تحف تمثله وعلى آثار بشرية لعالقة وأقزام.

التغذية :

فى هذا الميدان تدل الآثار الفنية على انتشار البدانة، وبصورة خاصة اكتناز الأرداف عند النساء وقد يكون فى تمثيلها على هذا النحو رمز (لإله الإنجاب والخصب) كما كانت الحال عند كل الشعوب البدائية.

وقد أوصى سكان جواتيمالا بتسمين الأجسام، وكانوا، على العكس يعدون النحافة بلاءًا خطيرًا، وينظرون على أنها نتيجة لاستيطان روح دخيلة فى الشخص النحيف. ولذا مثلوا لها تماثيل مثيرة وفى غاية الواقعية، توجد منها أمثلة فى الكثير من المتاحف. ولا غرابة فى أن ينتشر الهزال والنحافة بين الفقراء وغذاؤهم الأساسى الأذرة، وهى بذرة تفتقر إلى عناصر غذائية أساسية. غير أنه لم توجد آثار للبلاجرا التى تصيب عادة آكلى الذرة، ولا لمرض البرى برى (نقص فتامين ب أ)، ولا للاسقربوط (نقص فيتامين ج)، ولئن أصيب به الفاتحون الأوربيون أحيانًا بشكل وباق، فإن - على العكس - كان سبب مناعة الهنود استهلاكهم أطعمة تحوى كميات كبيرة من فيتامين ج.

وقد حرم السكر تحريمًا شديدًا. ولقد كان يعاقب مرتكبه بالشنق أو بالقتل ضربًا بالعصى، أو بالطرد من المدينة، وليس أدل على النظرة المزرية التى كان ينظر إليه بها من الخطبة التى اعتاد الملوك إلقاءها عند تقلدهم الملك : « أن تعاطى مشروب الـ (اكتلى octli) والخمر، أساس كل السيئات، وعلة كل الخلافات والثورات والاضطرابات فى المدن والممالك.. ويدفع إلى الزنا وهتك الأعراض والسفاح بالقرب والسرقة والشهادات

الكاذبة والافتراء والمشاجرات وارتكاب كل الجرائم».

على أنه قد استثنى من هذا الحكم الشيوخ، وفئة من الكهنة. فرض عليهم احتساء الخمر والثمل الدينى فى أثناء بعض الأعياد، متبوعًا بالزنا الطقسى بوصفه نوعًا من العبادة.

الأمراض السارية والأوبئة :

كان سكان القارة الأمريكية، بصفة عامة، يتمتعون بصحة جيدة، وهم لم يعرفوا الأوبئة إلا عندما تعرضوا للأمراض التى وردت إليهم مع الفاتحين الأوربيين وعبيدهم الأفريقيين، وكانت تعوزهم المناعة ضدها بسبب عدم تعرضهم لها قبلا. ولذا فإن عدد ضحايا وباء سنة ١٥٧٦، الذى لم تحدد طبيعته بعد، بلغ مليونين من المكسيكيين. وقد انخفض عدد سكان جزيرة اسبانيولا Hispaniola الذى بلغ ١٠٠,٠٠٠ عندما رسى بها كولومبس،.. إلى ٢٠٠ فقط بعد مرور مائة سنة.

ولكن ليس معنى هذا أن الهنود نجوا نجاة تامة من الأوبئة قبل عهد كولومبس. وقد نشر (سومولنوس داردوا(٢٢٩) معلومات قيمة عن الأوبئة التى تفشت فى المكسيك فى القرن السادس عشر، ويبدو أن الهنود عانوا قبل سنة ١٠٠٠ م بقليل، ومرة ثانية حوالى سنة ١٤٨٠ م من وباء يصعب تشخيصه الآن.

وقد نسب الإستيكاس الأوبئة إلى سهام إله نجم الصباح أو (سيد بيت الفجر) وقالوا إنه يستطاع التنبوء بحدوثها فى تواريخ معينة من تقويمهم التكهنى. ومع ذلك فقد فطنوا إلى دور البعوض فى تفشى بعضها، وقالوا إن هوایاما کاباك Huayama Capac ثانى ملوك أسرة الإينكاس، توفى من جراء وباء فاتك نشره بعوض أسود، أطلقه رسول سرى من لدن الإله الخالق. ولكنهم - ولا شك - فطنوا إلى فكرة العدوى، فقد ذكر (جويرا) أنهم خصصوا بابًا فى كتبهم لحميات معدية وصفوا عوارضها الأولى، والرعشة التى تتبعها.. إلخ. وقد استقبح سكان بيرو جو الشواطئ وحرصوا على بناء منازلهم بعيدًا عن المستنقعات، وسنوا قوانين تحتم عزل المصابين بالأمراض التى ظنوها معدية.

إلا أنهم نجوا من الكوليرا والرمد الحبيبى، وقد يجوز الشك فى إصابتهم بالقرمزية

والتهاب النكفية والجديرى والحصبة والدفتريا. وهم لم يصابوا بالطاعون إلا فى القرن التاسع عشر.

ومن الأمراض التى تفشت بينهم: التيفوس، وقد كأكد (فرنسيسكو برافو Francisco Bravo) أنه مرض قديم وسماه المرض الوحشى(٢٣٠). ويظن (أكركنخت Ackerknecht) أن بعض الأوبئة السابقة لفتح كورتس، والتى نسبها المؤرخون إلى الحمى الصفراء، كانت فى الحقيقة مرض التيفوس(٢٣١). وقد اتخذ التيفوس صورة فتاكة فى سنة ١٥١٩، إذ أودى بحياة حوالى ٢٠٠,٠٠٠ شخص فى بيرو، وذكر (توركويمادا) ٨٠٠,٠٠٠ ضحية فى سنة ١٥٤٥، ولكن أشد مظاهره تجلت فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

ومن الأمراض التى خصت أمريكا الجنوبية مرضًا (التولول Verruga) واللشمانيا الجلدية. والفيروجا مرض ينتج عن عدوى بنوع من الريكتسيا يسمى برتونلا Bartonella bacilliformis، ويسمى أيضًا حمى وادى أوروبا، أو الأنيميا البيروفية، وهو يتسم بأنيميا، وبطفح مميز، وهناك أوان من الخزف رسم عليها مصابون بهذا المرض.

أما مرض ليشمانيا الجلد فإنه محصور فى منطقة معينة فى البرازيل وجبال الأند، ويسمى أيضًا (أسبوندية espundia) أو (أوتا uta)، ومن نتائجه تقرح أجزاء من لحم الوجه وسقوطها وتشويهات قبيحة، الأمر الذى يسهل التعرف على صورها فى أوانى الإينكاس والموشيكا (شكل ١٣-٥)

أما الطفيليات الأخرى فإنه يصعب بطبيعة الحال العثور على أى برهان يدل عليها، على أن بويضات عدد منها وجدت فى بعض المومياات، ومع ذلك فإنه لا يمكن التأكيد بأن الإنكلستوما الأمريكية necator americanus، أو الفلاريا، أو البلهارسيا، أو الكيس الدودى، وجدت قبل الفتح الأسبانى، هذا مع أن بعض التماثيل تمثل ورم الساقين والقيلة اللتين قد تنتجان عن الفلاريا، ومع أن بعض المؤرخين ينسبون تدهور حضارة الأنكا إلى مرض (شاجاس).

تبقى بضعة أمراض أثارت جدلا طويلا، وكان فى بعض الأحيان عنيفًا، أهمها الجذام والجدرى والزهرى(٢٣٢)، والملاريا والحمى الصفراء.

(أ) الجذام : لقد ترجمت بعض الألفاظ المحلية بالجذام دون برهان قاطع يؤكد صحة هذه الترجمة. وقد ورد نص فى مؤلفات ساهاجون يصف بعض عوارض الجذام كتآكل الجفون، إلا أن هذا النص - وكذلك شكل بعض تماثيل الخزف أقرب إلى مرض « أوتا » منها إلى الجذام. ويعتقد أغلبية المتخصصين فى الأوبئة أن الجذام ورد إلى هذه القارة من أوربا عند الفتح.

(ب) الجدرى : ومن المتفق عليه أن أول وباء جدرى فى أمريكا هو الذى حدث فى شبه جزيرة يوكاتان فى سنتى ١٥١٥ و ١٥١٦، أى بعد وصول الأسبان بأربع سنوات، ثم إنه تفشى فى الجزائر الأمريكية من ١٥١٧ إلى ١٥٢٠، وعاد وأصاب مدينة مكسيكو فى سنة ١٥٢٠. ويبدو أن العدوى كان منبعها عبداً أفريقيًا معتوقاً أحضره معه الأسبانى نرفايز. غير أن (مارتنز دوران) وصف أخيراً قطعة من الخزف وجدها فى جواتيمالا، تمثل وجهاً بشريًا مغطى بالدمامل، أبدى برأيه : أن المرض كان مستوطناً قبل وصول الأسبان.

ولقد قال المؤرخون أن هذا المرض كان أقوى حليف للأسبان فى فتحهم، بسبب سرعة انتشاره وارتفاع نسبة الوفيات التى سببها والتى بلغت من ٥٠٪ إلى ٩٠٪ من السكان الأصائل، هذا على حين لم تربو على ١٠٪-٤٠٪ عند الأسبان. ولم يصل المرض إلى أمريكا الشمالية إلا فى سنة ١٦٣٣، وكان ذلك فى مدينة بوستون وقال بعض المؤرخين أن الفاتحين فى أمريكا الشمالية تعمدوا نشر المرض بإدعاء الكرم وتوزيع ثياب من مات منهم بهذا المرض على الهنود الحمر.

(جـ) الزهرى : مما لا شك فيه أن هذا المرض وجد فى أمريكا قبل الفتح. وآية ذلك تماثيل من الخزف تمثل مظاهر جلدية، وبعض العاهات التى تنتج عن وراثة هذا المرض، كسقوط قنطرة الأنف، وشكل الأسنان (هتشنسون)، ثم بقايا من العظام تؤكد الإصابة به، وقد بلغ اتهام هنود أمريكا بإيواء هذا المرض حد التأكيد بإنهم أخذوه عن اللاما وهو حيوان الحمل والنقل الذى استخدموه. ومن جهة أخرى، يمكن الشك فى كل هذه التأكيدات فى ضوء العلم الحديث، من حيث إن أغلب الإصابات التى وصفت قد تنتج عن أمراض مستوطنة أخرى كالفرامبيزيا Frambesia(المصع)، وعلى كل

حال فإنه يجوز القول بأن هذا المرض، إن وجد فى أمريكا من قبل، كان خفيف السطو ولم يحدث إصابات إحشائية خطيرة، كتمدد الشرايين أو الشلل العام.

أما سبب رد هذا المرض إلى عدوى من أمريكا فهو اتفاق تاريخى بين الفتح الأسبانى وبين ظهوره سافراً فى أوربا، وكان هذا على وجه التحديد فى برشلونة بأسبانيا. فقد أكد المؤرخون أن أول من أصيب به بحارة كولومبس فى جزيرة هايتى، وقد واءم هذا التاريخ تفشى ذلك المرض على شكل عنيف قاس فى مدن أوربا جمعاء. ومنذ ذلك الحين بدأ جدال بين فئة العلماء الذين نسبوا أصل المرض إلى الأمر نديين، وبصورة خاصة إلى الأمر نديات، وبين الآخرين. وما يزال الجدال متسماً حتى يومنا هذا بكل حماسة التعصب الوطنى، فتنسبه كل دولة إلى الأخريات. وبما أن هذا المرض ظهر، أول مرة، فى إسبانيا، ثم نقله إلى نابولى بإيطاليا جنود من الأسبان رحلوا إليها لحماية الملك فردناند الثانى ضد الفرنسيين - وإن الجنود الفرنسيين أصيبوا بالعدوى ونقلوها إلى فرنسا. فقد سماه الإيطاليون والأسبان بالمرض الفرنسى وسماه الفرنسيون بمرض نابولى، ووضع العرب نهاية للجدل وسموه بالمرض الأفرنجى.

أما فى أوربا فقد وجد مولر - كريستيانسن Moeller - Christiansen عدداً قليلا من بقايا العظام التى تشير إلى الإصابة بالزهرى من قبل القرن الخامس عشر(٢٣٣). ويرجح هذا العالم أن المرض وجد بأوربا كما وجد بأمريكا على شكل خفيف، ولكنه نشط عند عودة الجنود الأسبان، لتعرض الأوربيين إلى سلالات من جرثومة هذا المرض لم تألفها أنسجتهم، فظهر على شكله الوبائى المخيف.

(د) الفرامبيزيا : (المصع) وهو مرض شبيه بالزهرى، سببه جرثومة من فصيلة اللولبيات قريبة من تلك التى تسبب الزهرى، وقد وجدت له آثار فى أمريكا ترجع إلى العهد الحجرى الحديث، وقد خلط الرحالة بينه وبين الزهرى ولم يستطيعوا التمييز بينهما.

(هـ) الملاريا : هناك أوصاف عدة لحميات دورية وقد عزاها الأمرنديون إلى الهواء الفاسد، وكانت تعالج بقشرة خشب الكينا، ومع ذلك فإن الكثيرين يعتقدون أن مرض الملاريا بدأ ظهوره فى أفريقيا حيث المقر المختار لبعوضة الأنوفلس الناقلة له، وأنه ظهر فى جزيرة هايتى فى سنة ١٥٢٦. أما تفشيه بشكل فتاك فإنه يرجع بصفة خاصة إلى القرنين التاسع عشر والعشرين.

(و) الحمى الصفراء: لقد تجادل المؤرخون فى هذا المرض - فى عنف وتعصب - مثلما تجادلوا فى الزهرى، وإن كانت حججهم أكثر جدية وأقل عاطفية، وقد تناول الجدال أخيراً النقاش حول أول من كشف عن دور بعوضة (آيدس) فى نقل المرض، هل كان (بوبرتوى) فى فنزويلا أو (فنلاى) فى كوبا (انظر المقال الثانى عشر).

تبين أخصائيو تاريخ الحشرات أن عدة أنوع من البعوض استطوطنت أمريكا قبل سنة ١٤٩٢، ولم يكن بينها نوع الأنوفيل الناقل للملاريا أو الأيدس الناقل للحمى الصفراء.

ومن المؤكد أن تلك الحمى انتشرت بين أهل كوبا فى سنة ١٦٢٠، وجزر انتيل فى سنى ١٦٣٥، ١٦٣٩، ١٦٤٧، وبعدها، وإنها بصفة عامة كان لها تأثير بالغ فى حياة نصف القارة الغربى.

أما وجود هذا المرض من قبل فأمر جدير بالتأمل والنقاش وقد أكد (جويرا) هذا معتمدًا على نصوص مايا ترجع إلى سنة ١٣٥٠، وعلى مخطوطات (مكستك). غير أن جل النصوص المعروفة وضعت، أو ترجمت - كما أسلفنا - بعد الفتح. ولذا فإننا، عند الرجوع إليها، لا يجوز لنا أن نجزم بصحتها جزم اليقين، كما أنها بنيت على تفسير لفظة كسيكيك Xekik ومعناها تقيؤ الدم، بالحمى الصفراء، ومن الواضح أن هذه الترجمة تنقصها الدقة.

ومن جهة أخرى أبدى أورفييدو Orviedo رأياً عجيباً فى نشأة هذا المرض فقد كتب، سنة ١٥٣٥، أن الحمى الصفراء إنما تعكس فى عيون الأستيكان ولعهم بالذهب(٢٣٤) و(٢٣٥)، وهذا ما يشير إلى أن هذا المرض كان جديداً على البلاد. وأيد الكثيرون الرأى القائل بأن هذا المرض ورد من أفريقيا إلى أمريكا مع العبيد الأفريقيين، وصرح أكر كنخت أن المرض الذى فسره المترجمون بالحمى الصفراء كان فى الحقيقة التيفوس(٢٣٦).

وأخيراً فقد لقب أهل البلاد الأصليون هذا المرض بالمرض «الوطنى» لزعمهم أن إصابته الأوربيين أكثر من أصابته أياهم، وهذا رأى عجيب يصعب تفهمه، حيث إن الهنود دفعوا له ضريبة فاحشة بعد الفتح.

العاهات والتشوهات الخلقية :

قد يتعجب الزائر المتجول فى متحف من متاحف الفن الأمرندى، لعدد التحف التى تمثل أناساً مصابين بعاهات مختلفة، منهم القزم وأغلبه من الأكوندروبلازيا، والأحداب سواء أكانت حادة كالتى تنتج عن درن العظام، أم مستديرة كالتى يسببها لين العظام، والشفة الأرنبية، وصغر الفك الأسفل، والتواء الرقبة، والقدم الخنفاء، والمهق Albinism. والأعجب من هذا أن تلك التحف مصنوعة فى دقة ومهارة ومنحوتة من مواد نفيسة كاليشم Jade الأخضر. ولا عجب، فإن بعض هذه النقوش رمزت إلى شخصيات مقدسة، ولم ينظر إلى هذه العاهات والتشويهات كسائر الأمراض، على أنها عقاب الخطيئة أو فعل أرواح شريرة أو تجسد عفاريت، بل على العكس، ظن أنها لافتات سماوية تنبئ بمواهب خاصة وبقوى تفوق الطبيعة، يجدر بالناس احترامها، وتشير إلى اختيار الآلهة لحامليها الكهنة أو الأطباء.

ولذلك فإن التفرقة بين التصويرات الرمزية، وبين المسخة الحقيقية أو التشويه الخلق بالغة الصعوبة.

ومن مظاهر ازدواج النظرة إلى العاهات أن المسخ Monster، كان موضع ازدراء المكسيكيين، فقد روى أن إمبراطور الإستيكاس (مكتزوما الثانى) فسر ولاده طفل ذى رأسين، قبيل الفتح الأسبانى، بأنه ينذر بالسوء. وكانت الحوامل تحاول درء هذه التشويهات عن أطفالهن بالاختباء فى الظلام خلال كسوف القمر أو الشمس لتحتمى من تأثير (الإله كسولوتل Xolotl) المسخ. وقد شملت هذه النظرة التوائم إلى حد فرض إعدام أحد الوليدين.

وقد كثرت تصاوير التوائم السياميين أو ذوى الرأسين، ونسبت إليهم رمزية خاصة بازدواج كل مظاهر الخلق، وهو ازدواج متجسم فى : الشمس والقمر، السماء والأرض، الليل والنهار، الأرض والماء، والبرد والحرارة، والرجل والمرأة. كما أن بعض التماثيل مثل نصف منها إنساناً كاملا ومثل النصف الثانى هيكلا، ليرمز إلى عودة حلقة الحياة والموت.

وقد وصل العبث بالجسم البشرى إلى اختلاق العاهات، وهى عادة لعبت دوراً هاماً فى حياة أغلبية الشعوب الأمرندية الاجتماعية. وقد درسها (دمبو Dembo)*. دراسة مستفيضة. ومن المحتمل أن يكون القصد من بعضها التفرقة بين بعض طبقات الشعب المتمتعة بامتيازات، كالكهنة، أو الأعيان، أو النبلاء، أما أغلبها فكان الغرض منها الزينة للامتثال إلى مثل جمال خاصة.

وكان أهمها تشويه الرأس منذ الطفولة لإطالته رأسيًا وتسطيحه أفقيًا. والحقيقة أن هذا التشويه إنما كان الغرض منه المبالغة فى شكل المايا الطبيعى، إما لتحقيق الشبه (بإله الأذرة)، وإما لتسهيل حمل الأثقال المحمولة على الظهر بوساطة رباط مشدود على الجبهة. وقد كتب (فلورنوا Flornoy) فى هذا الصدد : «لقد كان الرأس موضع اهتمام خاص، وكانوا يضعون رأس الطفل بين لوحتين لينمو نحو السماء ويتخذ شكل التاج المثلث، وليكون أعلى منه عند سائر الناس، فقد كان هذا - فى ذهن الهنود - علامة التحرر، وكانوا بذلك يتخيلون أنهم يتحكمون فى نظام الطبيعة ويغيرونها بأيديهم[٢٣٧]. وقد كشف فى الأرجنتين عن جمجمة مركب عليها جهاز مكون من لوحة على الجبهة وأخرى على الرقبة، مربوطتين برباط بشد تدريجيًا، يركب على رءوس المولودين الجدد لمدة تتراوح بين أربعة أيام أو خمسة

ومن الأمثلة الزخرفية الأخرى، تشويه الأسنان وسن أطرافها على شكل المنشار، وترصيع سطوحها بالذهب أو بالحجارة كالفيروز أو الصدف[٢٣٨]، وثقب فص الأذن لتركيب أقراط ثقيلة لا تلبث أن توسع وتطيل الأذن الخارجية، أو ثقب الأنف أو اللسان للغرض نفسه، أو ثقب الشفة السفلى ووضع زينة فيها لتدل على بلوغ سن المراهقة. وكانت رءوس تماثيل المايا تحمل أنوفاً اصطناعية تحاكى منقار الكويتزال Quetzal وهو الطير المقدس.

إلا أن أغرب تشويه عدوه إشارة إلى سمو المنزلة هو الحول، وقد ذكر Diego de la Landa أن الأمهات كن يحدثن الحول بتعليق كرة من الصمغ مربوطة بشعر الأطفال قبال أعينهم[٢٣٩].

---

* Dembo, A., Imbelloni, 1938. Deformaciones intencionals..., Buenos Aires: Jose Anesi.

الجراحة :

إن الجراحة أولى وسائل العلاج التى تحررت من السحر والدين فى كل الحضارات، وقد اعتمدت على التجربة لسبب واضح هو أن ممارس صناعة اليد (كما سمى الإغريق والعرب الجراحة) كان يعالج أمراضاً أسبابها ظاهرة، لها خطورة مباشرة، ولم يسعه عند تناولها إلا تطبيق ما جربه ووجده ناجعاً، وذلك لخطورة الانصراف إلى تأملات تعقلية محضة إزاء نزيف أو عدوى. غير أن إمكاناتها ظلت محدودة وذلك لقلة المعارف التشريحية، ولبدائية الوسائل الفنية، وللافتقار إلى طرق كفيلة بإيقاف النزف العميق أو الألم أو العدوى. ولذلك قد اقتصر الجراحون فى كل الحضارات البدائية على إجراء العمليات السطحية البسيطة كاستخراج الأجسام الغريبة وعلاج الجروح غير النافذة، ورد الخلوع والكسور، وفتح التجمعات القيحية البسيطة، واستئصال الأورام الصغيرة السطحية وقد داعبت بعض الشعوب جراحة الجمجمة منذ العصر الحجرى القديم فمارست الترنة. كما أجريت عمليات بتر مبسطة وعملية الختان. وكان أمهر تلك الشعوب الاستيكاس، والبروفيون قبل الأينكاس.

وشمل علاج الجروح الخياطة بشعر آدمى أو حيوانى أو بخيط نباتى تحمله شوكة من الصبر أو إبرة مصنوعة من عظم سمك مثقوب. وابتكر وسائل طريفة أخرى استخدمت أيضاً فى الهند الشرقية (سوشروتا) وما تزال شائعة بين هنود وادى الأمازون فى جبال الإند وهى وضع نمل كبير الجسم على الجرح يحثه نهمه على القبض على شفتى الجرح بفكيه، وعندئذ بتر رأسه وترك فكيه وهما ماسكتان شفتى الجرح، ومن الطريف أن هذه الطريقة وصفها فى الأندلس الطبيب العربى الفذ (أبو القاسم الزهراوى) فى القرن الحادى عشر الميلادى.

وكانت الأجسام الغريبة تستخرج بملقط من البرونز، أما الجروح فكانت تغسل بالماء أو بالبول، أو بعصارات نباتية تضخ بالفم بوساطة مضخات يدوية. ومن أنواع العلاج الموضعية : المواد الدهنية وعسل النحل وخلاصات نباتية مخلوطة بالشمع أو بصفار البيض، وكانت التقيحات المغلقة تفتح المبضع، أو تمتص بالفم، أو بوضع التبغ وأدهنة مختلفة عليها. وكانت جروح الوجه تعالج فى عناية خاصة. قال (ساهاجون) : « إن

جروح الوجه يجب حياكتها بشعر من الرأس، ثم وضع عسل مخلوط بالملح على الغرز وعلى الجرح، أما إذا لم ينجح العلاج وسقط جزء من لحم الوجه، فعلى الجراح أن يكسيه برقعة تحاكى شكله».

وكانت الخروق تترك على علاتها بعد تغطيتها بمرهم مكون من العسل وصفار البيض وعصارات نباتات معينة.

وكان الخلع : يعالج بالتثبيت والتدليك الخفيف والأدهنة المسكنة. أما الكسور فكانت ترد بالشد وبالتحركات اليدوية وبلبخ من النعناع وألياف الأفدار ephedra، ثم بتثبيت العضو المصاب بوساطة أربطة سميكة مشربة بصمغ سريع التجفف، أو بوساطة جبائر من الخشب أو من ورق الذرة المشبع بدهان لاصق. ويجوز الشك فى نجاح علاج وصفه (ساهاجون) للحالات التى لا يتم فيها الشفاء، ومفادها ترقيع العظم بوضع قطعة من الخشب الصمغى فى تجويف النخاع.

ونجد البتر : مصوراً تصويراً واقعياً على كثير من أوانى الخزف التى روعى فيها رسم الغرز على الجدعة أو على ما بقى من العضو، ونجد بعض هؤلاء المبتورين مزودين بعصا أو بأطراف صناعية عثر على طائفة منها فى المقابر. وقد وجدت أيضاً فى إناء من الفخار أصابع مبتورة وسكين من الزجاج البركانى استخدم لبترها، ولا شك فى أن هذه الأصابع كان لها فى أمريكا - كما كان لها فى حضارات قديمة أخرى - معنى سحرى بالغ الأهمية. وكان للبتر معان كثيرة : فإن أقدام الأسرى كانت تبتر لمنعهم من الهروب، وكان بتر الأصابع طقساً من طقوس الموتى عند هنود الأوروجواى (الشاروا) وفى كندا وكاليفورنيا.

وكانت الترينة : بلاشك أغرب العمليات الجراحية، وتلك عملية أجراها إنسان أسكندنافيا وجزر بولينزيا وسيبيريا وأفريقيا الشمالية، وبلاد ما بين النهرين ومصر، ومن المعروف الآن أن هذه العمليات شملت أمرين مختلفين كل الاختلاف فإن بعضها كان يجرى بعد الوفاة لاستخراج قطعة من العظم تستعمل على شكل تميمة أو طلسم. وفى هذه الحال يبدو الجرح متساوياً، مستديراً، وخالياً من أية علامات الشفاء. وكان البعض الآخر يجرى على الأحياء، وذلك ما يتبين من وجود تفاعلات حيوية على شفة الجرح،

وقد شاعت تلك الجراحة، بصفة خاصة، فى بيرو قبل حضارة الإينكاس بزمن طويل، أى فى العهد المسمى عهد الكهوف. وقد وجد عدد كبير من تلك الجماجم مجمعاً فى مقبرة فى شبه جزيرة باراكاس، دون الوصول إلى أى تفسير لهذا التجميع. (شكل ١٣-٦ و٧)

على أننا إذا تأملنا فى الحالات التى أجريت لها الترنبة وجدنا أن أقدمها كان يرجع إلى اعتبارات سحرية، أى السماح للروح الدخلية بالخروج، ثم تحولت فيما بعد إلى عملية يقصد منها إما استئصال شظايا العظام المكسورة، أو علاج أورام المخ، أو تقيحات جيوب الأنف الجبهية، أو إصابة عظام الجمجمة بالالتهابات التقيحية أو بمرض (الأوتا).

وكانت وسيلة الترنبة فى أول عهد الإنسان بها، الحك بآلة من البرونز، ثم ابتكرت وسيلة أخرى هى إجراء ثقوب متتالية على خط مستدير، ثم يرفع الدائرة عند انضمام حواف الثقوب. وقد صورت بعض الآثار الفنية هذه العملية، ونجح جراح معاصر من بيرو اسمه (جرانا) فى إجرائها بالآلات ذاتها التى استعملها أجداده. ونفصل هذه العملية فيما يلى :

حلاقة الرأس قبل العملية بيومين - وضع أوراق الكوكا المدهوكة لتحقيق تخدير موضعى - التخدير العمومى بالخمر - ربط الرأس على مستوى الجبهة برباط من صوف اللاما - شق الجلد بمبضع من الذهب أو الفضة أو النحاس على شكل هرساة مقلوبة - وخز طبقة عظم الجمجمة الخارجية بمثقاب من البرونز أو الزجاج البركانى الأسود، ثم اختراق طبقة العظم الداخلية بعناية فائقة لتجنب اختراق الجيوب الوريدية أو جرح الأم الجافية - والتضميد بالقماش المشبع بأملاح الزئبق أو بسلفات النحاس. وكانت الفتحة تسد أحيانا بدائرة من المعدن. وقد حازت هذه العملية نجاحاً يثير الإعجاب، فلقد وجدت آثار تدل على شفاء الجرح فى ٦٢٪ من الحالات. ولكن مما لا شك فيه أن النزف والعدوى كانا يسببان وفيات كثيرة.

الختان : ما يزال إجراؤه مشكوكا فيه وإن بدت بعض التماثيل مختنة، أما مدلول هذه العملية فإنه كان إما زخرفيًا لتحسين شكل الإنسان أو إشارة إلى تقديم دم نفيس إلى الآلهة.

ومن الإجراءات العلاجية الأخرى الشبيهة بالجراحة، لنذكر الفصد والشق بالمبضع أو بتصويب الأسهم، والحجامات، وقد كانت لها معان سحرية أو دينية، منها التشفع للآلهة، أو التخلص من العفاريت، أو تقديم الدم قربانًا، وكانت تجرى فى مواسم يعينها التقويم، وكان الدم إما يمتص بوساطة قرعة مفرغة توضع بين الجرح والفم، وإما يجتذب بالحجامات أو بدهك الجلد بالفلفل الأحمر.

وكان الفتق : يربط، ولا تجرى له جراحة. وكانت الجروح التى يسببها عض الثعابين تستقصى، وكان السحرة يدعون شق البطن واستخراج الثعابين والضفادع وأشياء أخرى منفردة من تجويفه.

الصحة العامة :

وإلى جانب البدائية فى الطب وفى العلوم المتصلة به، والطرائق العلاجية الغريبة غير المنطقية التى استخدمها الأمرنديون، وجد الأوربيون ما أثار دهشتهم وإعجابهم فى تخطيط مدن المكسيك ولا سيما إذا أخذ فى الاعتبار تركيز السكان الملحوظ فيها، فقد روى أن عدد سكان كل من (شان شان) و(كوزكو) ببيرو بلغ ١٠٠,٠٠٠، وأن كلا من (شيشن أتزا) و (تيكال) و (كوبان) كانت تأوى ٢٠٠,٠٠٠ نسمه، وهو عدد يفوق عدد سكان باريس فى ذلك الوقت. وقدر سكان (تنو شتتلان) بتسعين ألفًا وقيل خمسمائة ألف، وقد كتب عنها فاتحها (كورتس) : « إن الشوارع الرئيسية واسعة ومستقيمة، نصفها أراضى ونصفها الثانى حفرت فيه قنوات لزوارق الهنود »، وكتب (دى لاندا) : « إن الهنود يقطنون مدنا منظمة تنظيما كاملا ونظيفة ومجردة من الأعشاب ومزدانة بأشجار جميلة ».

وقد ابتنى أهل بيرو منازل من الحجر، واستخدم الإستيكاس (القرميد)، وأفسح أغنياؤهم باحات وسط المنازل للتهوية والترفيه، وبنى المايا منازل من (القصرمل) وزدوها بأسقف منحنية مغطاة بالقش. وقد اختصت مدينة تنوشتتلان (مكسيكو حاليا) بمراحيض عامة، حيث كانت تجمع الفضلات لتستخدم فى الزراعة. واعتنت السلطات عناية خاصة بالمياه النقية. وكانت تلك المياه تجلب إلى مدينة (كوزكو) ببيرو من عيون فى الجبال المجاورة، عن طريق وصلات جوفية حفرت بأمر من باشاكوتك المصلح

(١٤٣٨ - ١٤٧١)، وفى الوقت نفسه أمر مكتزوما الأول (١٤٤٠ - ١٤٦٩)، بتشييد قنوات معلقة aqueducts لتوصيل المياه النقية من غابات (شابلتيك) إلى (تنوشتتلان)، وبناها من طبقتين تستعملان على التتابع للتمكن من التنظيف، وتصب تلك القنوات فى خزان فى وسط المدنية يغذى شبكة من الوصلات الثانوية، وقال (برنال دياز دل كاستلو) عندما شاهد هذه العجائب: «إن ما يدعو إلى التأمل والتفحص يفوق قدرتى، فإنى رأيت إنجازات لم يسمع بمثلها قط، ولم تر البتة من قبل ولا سبيل لتخيلها»[٢٢٣].

ولم تتخلف العناية بنظافة الفرد عنها بالنظافة العامة، فقد كان (مكتزوما) يغتسل مرتين يوميًا، وبصورة خاصة كان يواظب على غسيل يديه قبل الأكل وبعده، وبلغ الأمر بالإستيكاس أن عدُّوا عدم الأغتسال ذنبًا، وكانوا يستعملون - بدلا عن الصابون الذى لم يعرفوا صنعه - نوعًا من الثمار، وجذور (السابوناريا أمريكانا). وكشف الباحثون عن حمامات فردية من الحجر فى قصور (كوزكو)، ومنازل أعيانها. وكان يحكم على أهل بيرو - إذا أدينوا بالقذارة - بالضرب بالعصى وبشرب ماء حماماتهم، ثم أن الاستحمام فى الجداول والعيون الساخنة كان شائعًا بينهم. ومن عاداتهم الصحية التردد على حمامات البخار أو الهواء الساخن بغية النظافة أو الشفاء من بعض الأمراض. ويلى حمام البخار الغوص فى النهر، أو فى الثلج، وشرب الماء البارد، كعادة السونا sauna الفنلاندية.

وقد عنوا عناية خاصة بالرياضة البدنية لإعداد نشأة من الشباب لائقة بالأعمال الشاقة وبالمشاركة فى الحروب.

ولقد فطن الهنود - منذ أول تاريخهم إلى الثروة النباتية من العقاقير الموجودة فى بلادهم، ولأنواع النباتات التى تؤثر تأثيرات عنيفة على الجهاز العصبى. ومن تلك النباتات الكوكا التى يستخرج منها اليوم شبه القلوى الكوكايين والتى كان البيروفيون يمضغون أليافها بشىء من الجير أو الرماد، لتزيل التعب وتنشط أعصابهم وعضلاتهم، وقد استعملها الكهنة للاستعانة بها على استخدام النشوة الدينية التى اتصفت بها عباداتهم، غير أن السلطات أدركت مضار الإدمان على استخدام هذا النبات، فوضعت حراسًا على المزارع وحددت لكل عامل ورقة واحدة يوميًا.

أما فى المكسيك فقد شاع استعمال التبغ، وكان المخدر المفضل هو (البيوتل) وهو نوع

من الصبر له - بالإضافة إلى خواص الكوكا - خاصة إحداث الهلوسة والتخيلات الوهمية. وقد شاع استعماله لدى الكهنة والسحرة، الذين استعملوا كذلك أنواعا من الفطريات ذوات خواص مماثلة. وقد أدت إعادة تفحص هذه النباتات أخيرا إلى معرفة خواص هذه الفطريات واستعمالها طبيًّا من جهة، وإلى نوع جديد من الإدمان من جهة أخرى.

ومن النباتات الأخرى المفيدة التي استعملوها، طائفة كبيرة ورثناها عنهم وما نزال نستعملها إلى اليوم: منها بلسم بيرو، وبلسم طولو، والكاكاو، والكوبال، والكورار، وطائفة من فصيلة الفربيون، (والغويقم guaiac الذى عدوه نباتًا مقدسًا يعالج به الزهرى، وعرق الذهب الذى استخرجت منه مادة الإمتين، والجلبة، والعشبة، والتبغ، ورعى الحمام، والمطاط الذى استخدموه فى صناعة اللصق، ونبات اسمه كاربتروش له مزايا زيت الشولموجرا chaulmoogra نفسها فى علاج الجذام، والكينا[٢٤٠].

وللكينا تاريخ أشبه بالقصة البوليسية. روى أن بعض هنود بيرو لاحظ أن ماء بعض المستنقعات اكتسب، بعد زلزال هز أرضهم، مرارة جديدة تشفى الحميات، وأدركوا أن هذا الماء إنما اكتسب هذه الفائدة من خشب شجر سقط فيه بعد الزلزال، فاحتفظوا قرونا بهذا السر، حتى سنة ١٦٣٠، أى بعد حدوث الفتح بمائة سنة، وحدث أن أصيب محافظ لوكسا الأسبانى، واسمه دون لوبزدى كانيزارس، بحمى راجعة، فشفاه أحد الوطنيين بهذا الدواء، ردًّا لجميل كان يدين له به. ثم أصيبت فى سنة ١٦٣٩ كونتس (دى سنشون) - قرينة نائب ملك بيرو - بحمى شفيت منها بفضل هذا العقار، وتوفاها الله فى طريق عودتها إلى أسبانيا، إلا أنها - قبل مغادرتها بيرو - أهدت مقدارًا من القشرة العجيبة إلى اليسوعيين الذين أسرعوا فأبلغوا الأمر إلى رؤسائهم بروما، فبادرت جمعية اليسوعيين بتوزيع الدواء الجديد فى أوربا، وربحت من احتكار هذه التجارة أموالا طائلة، وأطلق على الدواء (كنكينا) وهو لفظ منحدر من اسم كونتس (دى سنشون).

المهنة الطبية:

بلغ الأطباء والمتطببون منزلة رفيعة فى مجتمعات ما قبل كولومبس، ذلك إما لأن الساحر كان يهيمن على قبيلته بحكم اتصاله المزعوم بالقوى التى يتحكم فيها، أو لأن

الطبيب كان ينظر إليه على أنه عضو مفيد فى المجتمع يمتاز بالعلم واللباقة والحدس النفساني.

أما التعليم الطبي، بمعناه الحديث، فلم يكن معروفا، وقد روت أساطيرهم أن طب الـ (تولتك) نظمه مجتمع من الحكماء الأربعة الذين أنشئوا التقويم التكهنى وهم (أكسوموكو Oxomoco)، و (سيبكتونال Cipactonal)، و (تلالتيتيكم Tlealtetecum)، و (خوشيكاواكا Xochicuaca).

ولا ندرى هل كانت مزاولة الطب فى بيرو مقصورة على فئة من الناس. هذا وإن كان (روكا) - سادس ملوك الإينكاس - سجل أمرة بتعليم العلوم للنبلاء فقط لئلا يتكابر أهل الشعب.

وعند الإينكاس انتمى ممثلو أعلى فئة من فئات الأطباء إلى الطبقة الحاكمة وتخرجوا فى مركز علمى فى مدينة كوزكو Cuzco، حيث كان يدرس أيضًا فن ربط العقد على الحبال، وهو فن حل عندهم محل الكتابة عندنا.

أما فى بلاد (المايا) فإن الطبيب كان عضوا من فئة الكهنة، وكانت المراسيم بالتصريح بمزاولة المهنة تقام فى حفل دينى سمى (بوكام)، ويُهدى فى خلاله صندوق يحوى عقاقير وحجارة وتماثيل صغيرة للآلهة، وأشياء أخرى ذوات طابع سحرى.

وقد وضعت لممارسة المهنة قواعد وقوانين لا سيما فى بيرو التى امتازت بنظام إدارى محكم. وكانت أحكام صارمة توقع على الأطباء الجهلة، أو على مزاولى السحر الأسود. كانت وجوههم تبخ بمسحوق الأذرة أو برماد شعر ضحايا أعمالهم، أما الذين يقدمون السم فكانوا يقتلون ضربًا أو يرجمون مع أولادهم، أو يخلى بينهم وبين الحيوانات المفترسة أو الثعابين فى كهف من كهوف مدينة كوزكو.

وكان الأطباء فى المكسيك يجبرون على التقدم لامتحانات قبل منحهم الترخيص بمزاولة مهنتهم، وقد سمح للسيدات بمزاولة المهنة فى غير أوقات حيضهن، وربما وجدنا فى تلخيص (ساهاجون) للفضائل التى كان يجب على الطبيب أن يزدان بها وصفًا لما عدوه الطبيب المثالى قال: «يجب على الطبيب أن يكون نموذجيًا، كالمنار أو المرآة اللامعة، عالمًا مقتنيا للكتب، محافظا على التقاليد، مدركا لمسئولياته، وجديرا بالقيادة. إن

العالم هو المرشد، وأستاذ العلم الصحيح جدير بالثقة، معتمد، يرشد إلى الصواب، يعيد النظام المفقود، خبير بعالم الموتى، وقور، بعيد عن أى عتاب، متفهم، مطمئن، باعث للسكينة، مستجيب إلى ما يطلب إليه، معيد للأمل، ومشارك فى علمه. أما عالم السوء فهو طبيب محدود الأفق، مكابر يدعى الحكمة ويبتغى الثقة وهو ساحر مشعوذ، خداع لص عام، هادم، ضار، ومرشد إلى الخطأ، يقتل الناس ويفسدهم. أن الطبيب (تسيتل) يشفى الناس ويعيد إليهم الصحة، له دراية بالتشخيص وخبرة فى خواص الأعشاب والحجارة والجذور، وهو معتدل فى سلوكه ويشفى عن طريق رد العظام وتركيب الجبائر، وتليين الأمعاء، وإعطاء المقيئات، والفصد وخياطة الجروح، وشق الفتحات. أما الطبيب الردىء فإنه كذاب حرفى، مجرد من القلب، غشيم، يقتل بعقاقيره، يزيد من شدة المرض، ويخاطر بحياة غيره، يدعى العفة والرشد، ويلق التعاويذ، ويقرأ الحظ ويخدع السيدات ويشعوذهن».

ولا ندرى هل أنشأ الأمرنديون هيئة أطباء من بين موظفى الدولة، ولكن ذلك محتمل. فقد عين ملوك (ميشواكان) هيئة منهم لعلاجهم الشخصى، كان يتحتم على أحدهم اصطحابه فى العالم الآخر بعد وفاته (آه ! !) وإلى ذلك فإن الجيوش كانت تصحبها فئة من الأطباء لا تقل تنظيماً وفعالية عن الفئات المماثلة فى أوربا.

وكان الجرحى ينقلون من ميادين القتال فى وسط المعركة، وذلك لغرضين : محاولة استعادة العناصر المحاربة، وحرمان العدو من اقتناء أسرى تقدم قرابين للآلهة لا سترضائها، وقد شهد (دياز دل كستلو) بأنه لم ير ميتًا واحدًا فى خلال معركة شاهدها، وكذلك روى (متولينا Motolina) أن الجراحين كانوا يضمدون الجرحى وسط القتال(٢٤١).

ومن فئات الأطباء التى ذكرتها النصوص : الطبيب العام، الكاهن الساحر، الطبيب العلمانى، الطبيب المتنقل، طبيب البلاط والنبلاء، وطالب الطب.

ومن المختصين : الباطنى، والجراح، والمجبر، والفاصد أو المزين، وطبيب العيون، وطبيب الأسنان، وطبيب الآذان.

ومن الصعب إدراك تخصص كل فئة، هل كانت تلك التسميات مجرد وصف ورد

على قلم الكاتب، أو كانت تشير إلى تخصص دقيق.

* * *

وبعد ، فلقد حاولنا فى هذا المقال إلقاء نظرة على لون من الطب، استقل فى تطوره على طب العالم القديم، غير أننا لنعد أنفسنا ناجحين إن كنا دفعنا بعض قرائنا إلى التأمل فى تأثير حضارة شعب على طبه ووسائل علاجه، ذلك أنه قدر لكل شعب ما يليق به من الطب، وما هو جدير به، كما أن لكل شعب آلهة اختارها لنفسه لتجسيم مثله فيها.

نشأ طب الأمرنديين فى جو من السحر والتدين، واتسمت ديانته بقسوة نادرة المثيل. وإذا كان الجانب التجريبى منه قد ترعرع على مر القرون وأثار إعجاب الفاتحين الأوربيين، وعرفنا بعقاقير فعالة، ما نزال ندين له بها، فإن الجانب الآخر ظل معمولا به إلى جانبه، كما نرى اليوم قوافل الجمال إلى جانب الطائرات النفاثة، والمراكب الشراعية إلى جانب البواخر النووية، وظل هذا الجانب متحجرا ، بل نقل تجمده إلى قرينة التجريبى، شأن الاعتبارات الدينية الزائفة التى تدعى احتكار الحقائق الأزلية، والتى يحتمى فى ظلالها كهنة متعصبون استثمروها لمصالحهم.

لقد رجم هنود أمريكا الزانيين، ولكنهم لم يحجموا عن الزنا وعن ألوان الانحراف الجنسى من خلال طقوسهم الدينية، عنوا بالأطفال والمرضى عناية فائقة ولكنهم شقوا صدور الأسرى وأحرقوهم قربانًا لآلهتهم، تعففوا عن السكر، واحتسوا الخمر والمهلوسات فى نشواتهم الدينية، أشادوا بمثل عليا يقتدى بها الأطباء، وسلخوا الفتيات حية واتخذ سادنو ديانتهم جلودها ثيابًا، أدانوا القذارة، وأكلوا اللحوم البشرية فى طقوسهم الغائرة، وضعوا تقاويم دقيقة وامتازوا فى الحساب الفلكى، ولم يفطنوا إلى فوائد العجلة فى النقل، ابتنوا مدنًا حازت مرافقها إعجاب أوربا، وجهلوا الحرث وأجدبوا حقولهم بزراعتهم البدائية.

وقد احتار الفاتحون الأوربيون إزاء هذه التناقضات، واستنكروا الذبائح البشرية، والثمل الدينى والهلوسة التعبدية، واللواط والشذوذ الجنسى، والعلاقات الجنسية بين الأقارب، إلى حد الشك فى بشرية هذه الشعوب. لأنهم لم يحاولوا تفهم أسسها

العقيدية، أو تصور الصورة الخلفية التى برزت فيها هذه العادات الغريبة عليهم، أو خوض الأعماق النفسية التى ازدهرت فى تربتها، أو بحث المفاهيم الاجتماعية والأوضاع التى قامت عليها.

وقد حاولوا استبدال مثلهم الأوربية بالمثل القديمة، ولم ينجحوا تمامًا فى هذا الاستبدال، وتركوا فراغًا روحانيًا لم يستطيعوا ملأه، وهذا الفراغ ما يزال يعانى منه سكان هذه البلاد. وقد بلغ الأمر بأحد الكتاب الممتازين الذين عرضوا لهذه المسائل أن ألف كتابًا أسماه (ذهن الإنسان قبل كولومبس) The Pre-Columbian Mind[٢٤٢]. حاول فيه تفسير هذه الظواهر تفسيرًا علميًا، وذهب إلى أن الشراسة غير البشرية فى عوائدهم ترجع إلى عدم اعتقادهم فى جحيم تعذب فيه أرواح المخطئين فى العالم الآخر.

ومهما يكن من أمر هذه الحضارة التى لا نستسيغها وإن كانت عندهم فى ذاك العصر طبيعية ومقبولة، سواء أكانت وليدة تكوين بيولوجى خاص نشأ فى خلال عزلة عن بقية البشر دامت آلافًا من السنين، أم نتيجة لتطور فكرى وعقيدى اختصوا به فى أثناء هذه الحقبة الطويلة من العزلة التاريخية، فإنها إنما تقوم دليلا على ظاهرة من ظواهر ذهن الإنسان المحيرة، وهى الانفصام الذى كثيرًا ما نقابله فيه، كأن الذهن مقسم إلى (خانات) تفصل بينها حواجز لا سبيل إلى عبورها.